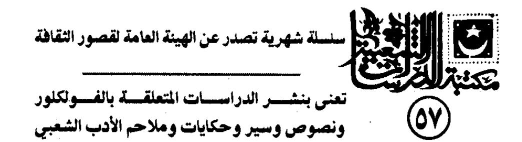
النبــــــوءة
أو قــدر البطــل
في السيرة الشعبية العربية

د. أحمد شمس الدين الحجاجي



سلسلة شهرية تصدر عن الهيئة العامة لقصور الثقافة

تعنى بنشر الدراسات المتعلقة بالفولكلور
ونصوص وسير وحكايات وملامح الأدب الشعبي

(٥٧)

• النبوءة
أو قدر البطل فى السيرة الشعبية .
• د. أحمد شمس الدين الحجاجي
• الطبعة الثانية .
• القاهرة : أغسطس ٢٠٠١ م
• تصميم الغلاف للفنان : محمد بغدادي
• رقم الإيداع : ١٣٦٧٥/ ٢٠٠١
• المراسلات :
باسم مدير التحرير
على العنوان التالى : ١٦أ شارع أمين سامي - القصر العيني
القاهرة - رقم بريدى ١١٥٦١
ت : ٧٩٤٧٨٩١ (داخلى : ١٨٠)
• الطباعة والتنفيذ :
شركة الأمل للطباعة والنشر.
ت : ٣٩٠٤٠٩٦

النبـــوءة

أو قدر البطل في السيرة الشعبية العربية

د. أحمد شمس الدين الحجاجى

المحتوى

المحتوى

المحتوى

إهداء

إلى **أحمد علي مرسي..**

صداقة لا تنقطع

لفلاح مصرى أصيل.

د. أحمد شمس الدين الحجاجي

البؤرة الساحرة

الأستاذ الدكتور أحمد شمس الدين الحجاجى أحد قلة قليلة تهتم بالتراث الشعبى، وبخاصة السير الشعبية. له فى هذه الأخيرة دراسات عديدة، وصولات وجولات فى أمسيات هيئة قصور الثقافة، يخاطب فيها الجماهير الواسعة عن هذا الفن الشعبى الأصيل ويبرز ما ينطوى عليه من قيم بطولية وأخلاقية عظيمة.

والكتاب الذى نقدمه له اليوم: (النبوءة أو قدر البطل فى السيرة الشعبية العربية) يعتبر واحدا من أهم الكتب التى تعرضت

للسيرة الشعبية بالدرس والتمحيص. وقد صدرت طبعته الأولى فى سلسلة كتاب الهلال منذ سنوات طويلة. وكان فى خطتنا نشره، ونحن نؤسس لهذه المكتبة، لكننا فوجئنا به منشورا فى السلسلة المذكورة، فأرجأنا نشره طوال هذه السنوات، فلما تبين لنا أنه قد نفد تماماً، وأن المطبوع منه لم يكن كافيا للوصول إلى نسبة كبيرة من عامة القراء، وأن بعض أبنائنا من طلاب الجامعة يطلبونه بإلحاح؛ قررنا إعادة نشره فى هذه الطبعة الشعبية.

إن الممتع فى هذا الكتاب هو أن الدكتور الحجاجى قد اختار زاوية شديدة الأهمية فى السيرة الشعبية بوجه عام، تلك هى النبوءة. فكل سيرة من السير فيها نبوءة أساسية، ونبوءات فرعية. أما النبوءة الأساسية فإنها - إذا استعرنا تعبير نقاد الشعر القدامى - تعتبر بيت القصيد، أو البؤرة الضوئية التى تتجمع فيها إشعاعات العمل الفنى، إنها أشبه بالشأفة، أو النبتة التى يصعد منها جذر الشجرة، إنها أصل الشجرة. وقد أبدع الفنان الذى وضع السيرة الشعبية فى تكثيف صياغة النبوءة إلى حد يفوق التكثيف الشعرى أحياناً، وفى أحيان كثيرة تكاد النبوءة تكون عملاً فنياً قائماً بذاته فى بعض السير، كسيرة حمزة البهلوان مثلا. والنبوءة إما أن تجىء

كرؤية حلمية ، أو عن طريق العراف ، وفى كلتا الحالتين تجىء فى صياغة فنية ممتعة .

والأكثر إمتاعا هو أن نقرأ رؤية الدكتور الحجاجى للنبوءة فى السيرة الشعبية ، لسوف نجد أنفسنا فى تفاصيل عالم فنى ساحر ، سيما وأن الدكتور الحجاجى كاتب روائى يملك خيالاً من نفس جنسية الخيال الذى أبدع السير الشعبية ، مما جعل شخصية الدارس تذوب فى شخصية الفنان لصالح الموضوع الذى يعالجه .

نتعشم أن يجد قراؤنا نفس ما وجدناه فى هذا الكتاب .
وسلام عليكم .

• خيري شلبي •

مقدمة

منذ عام ١٩٧٨ وأنا أعمل جاهداً للتعرف على قانون السيرة الشعبية في محاولة لتأصيل هذا النوع الأدبي الذي يمثل إبداعاً حياً للجمهور من أبناء الشعب العربي. ولقد بدأت هذه المحاولة ببحث عن مولد البطل الذي انتهيت من كتابته في مارس ١٩٨٨. ولم أتوقف منذ هذا التاريخ عن محاولة تعميق هذا البحث. وقد رأيت أن كل فصل من فصول كتابي يحتاج إلى أن يكون مجلداً كبيراً، إذ أن بحث مواليد البطل يمثل خريطة العمل الأولى. ولست فريداً في ذلك، فقد كان هناك من الباحثين من بدأوا أعمالهم الأولى بمخطط، ثم أخذوا يحفرون لتعميق ما بدأوا في تقديمه.. كما فعل جمال حمدان الذي قدم بحثه الرائد

عن شخصية مصر فى كتاب الهلال، ثم أخذ يعمق هذا الموضوع فى أبحاث أخرى.

وإنى أعد دراسة السيرة وجمع نصوصها المشروعَ العلمى لحياتى كلها، وأرجو الله أن أوفق فى ذلك .

وهذا الكتاب يمثل حلقة مهمة بالنسبة لى فى دراسة السيرة الشعبية. فهو جزء من مشروع كبير عن دراسة السيرة. لقد بدأته ببحث «مولد البطل فى السيرة الشعبية» ثم أخذت كل وحدة من هذا الكتاب بالدراسة؛ فكانت دراسة النبوءة ممثلة لخلاصة الدراسات التى قمت بها عن الأسطورة.

فالنبوءة هى المدخل الأساسى للبطل فى عالم الأسطورة، فليس هناك بطل فى حياة الشعوب لم تكن الأسطورة جزءاً منه.

والأسطورة هى عقيدة الجماعة، وينبغى ألا نربطها بالكذب أو المغالاة وإنما هى الواقع الصادق فى عقيدة المؤمنين بها.

ومن هنا كان الزمان المقدس والمكان المقدس مرتبطين ارتباطا وثيقاً بالبطل.

والنبوءة عنصر مهم من عناصر السيرة تربط البطل فى جميع مراحل حياته بالأسطورة برباط وثيق. وقد أخذت هنا النبوءة الخاصة بالميلاد فهى المحدد لمسيرة حياة البطل. وقد

تناولتها فى علاقتها بالمكان والزمان وحددت الكيفية التى يمكن أن تبلغ النبوءة عن طريقها، فتناولت بالدراسة الرؤيا والإلهام والتنجيم وقراءة الرمل والكتب القديمة، ثم أضفت إلى هذا البحث ملحقا هو الباب الأول من سيرة بنى هلال لراوية غير محترف هو الحاج عبد الظاهر بغدادى، من قرية الكرنك القديمة، مركز الأقصر، وقد نشر هذا الجزء فى مجلة الفنون الشعبية العدد ٣٢ - ٣٣ بتاريخ ٢٩ أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٨٩.

وإذا كان هذا البحث قد تناول النبوءة أو قدر البطل المحدد لسيرة حياته منذ ميلاده؛ فهناك أيضا نبوءة الموت التى تحدد النهاية، والتى أرجو أن أنشر بحثا آخر عنها.

وإنى لأطمع فى أن أضيف إلى كل بحث أقدمه جزءاً من الروايات الشفهية التى جمعتها من هذه السيرة، فلا شك فى أن هناك صعوبات عديدة فى نشر هذه النصوص. راجياً بذلك أن أساهم فى تأصيل هذا النوع الأدبى وتقديمه لجمهور الأدباء والدارسين العرب.

د. أحمد شمس الدين الحجاجي

مدخل

السيرة فى المصطلح : ترجمة حياة ، وفى التراث الشعبى : ترجمة حياة فرد أو ترجمة حياة جماعة . ترجمة حياة الفرد مثل «سيرة الإمام على بن أبى طالب - كرم الله وجهه - » ، وكذلك سيرة «حمزة البهلوان» ، وسيرة «سيف بن ذى يزن» .

وقد تكون سيرة جماعة مثل «الهلالية» و«ذات الهمة» و«الظاهر بيبرس» .

وقد لا يوجد بطل لسيرة من السير لم يرتبط ميلاده بالنبوءة فهى ترتبط بوجوده الفعلى ، تحدد له المصير المعد له والدور الذى سيلعبه فى حياته ، فهو دور عليه أن يلعبه ، وليس فى مقدوره أو مقدور أى إنسان أن يعوق هذه النبوءة عن التحقيق .

- وقد كان بيبرس الوحيد من بين أبطال السير الشعبية الذى لم تكن النبوءة بمصيره سابقة لميلاده، وإنما جاءت بعد أن اختطف من أهله وبيع، وقد جاءت النبوءة لحظة مرضه فى عبوديته لتنقذه من عذابه وتدخله مرحلة الاعتراف به بطلاً، فكانت بذلك ممثلة لميلاد جديد لابن الملك المريض.

وتلعب النبوءة دوراً كبيراً فى إخراج البطل من حيز الإنسان العادى إلى حيز الإنسان الأسطورى، أى من الواقعى إلى الأسطورى، وفيها يدخل دائرة الكون الكبير ليصبح مرتبطاً به ارتباطاً وثيقاً.

والنبوءة هى الإخبار بالمستقبل قبل وقوعه، أى أنها قراءة الغيب ومعرفة ما هو مكتوب فى قدر الإنسان. ولقد احتفت السير العربية الشعبية بالنبوءة التى تحدد مصير أبطالها، وهى ليست فريدة فى ذلك، فإن النبوءة معروفة فى الآداب العالمية الشعبية، وقد لعبت دوراً كبيراً فى بنيتها القصصية، وفى الأدب اليونانى كانت النبوءة قاسماً مشتركاً فى حياة أبطال الملاحم والقصص الشعبى. ولعل من أشهر النبوءات، النبوءة الخاصة بأخيل وكعبه(١) والنبوءة الخاصة بأوديب والتى حملها معبد دلفى إلى والد أوديب بأن ابناً سيولد له يقتله ويتزوج أمه، وحاول الأب أن يتخلص من الابن خوفاً من تحقق

النبوءة فكانت محاولته هذه هى التى أدت إلى تحققها.

(انظر : أويديبوس ملكا)

وكما قامت النبوءة بدور كبير فى القصص الشعبى فقد قامت بدور هام فى بعض القصص الدينى، ولعل من أشهر نبوءات هذه القصص، النبوءة الخاصة بيوسف(٣) وموسى(٤) عليهما السلام.

والنبوءة هى رسالة إلى الإنسان، قد تكون رسالة إلى عدو البطل فيحاول أن يحتاط للأمر ويحاول أن يوقفها فتكون محاولته تحقيقاً لها. وقد تكون خبراً يريح صاحبها، ويمنحه اليقين ويزيل عنه الخوف من نفسه. وقد تكون يقيناً للجماعة بدور بطلهم المقدر عليه.

وهذا البحث يدرس الكيفية التى يتم بها التعرف على النبوءة، إذ إن هناك عدة وسائل للتعرف عليها، منها الرؤيا أو الحلم ، والإلهام، ورصد النجوم وقراءتها، وقراءة الطالع بضرب تخت الرمل، وهناك النبأ المكتوب فى الكتب القديمة التى تركها أحد الحكماء القدماء ممن ألهموا أو كانوا يرصدون النجوم أو يضربون تخت الرمل.

وترتبط النبوءة فى كثير من الأحيان بالزمان والمكان، فليس كل وقت أو مكان صالحاً للرؤية الصادقة، كما أن الزمان مرتبط

ارتباطاً كبيراً بقراءة النجم ومواعيد ظهورها وعلاقتها بالنجوم الأخرى، ويلعب الزمان والمكان دوراً مهماً فى استجابة الدعوة، فإذا دعيت الدعوة فى الأماكن المقدسة فى الزمان المقدس فإن فرصتها كبيرة فى التحقق.

ولقد عرفت المجتمعات الإنسانية قداسة المكان وقداسة الزمان، لذا فإن من المهم التعرف عليهما وعلى دورهما فى النبوءة.

المكـــــان

لا تتسـاوى الأمـاكن من حيـث قيـمتـها عنـد مـعظم شـعـوب العـالم وفى جـمـيع المعتقدات البشرية ، فهناك أماكن مقدسة وأخـرى دنيـوية ، والأمـاكن المقـدسـة لا تتساوى فى قداستها ، فهناك درجات لهذه القداسة . ويذكر إليـاد أن الرجل المتدين لا يرى المكان متجانس التكوين ، فهـو يجد فـيـه بخـبـرتـه تقـاطعـاً فى اطـراده فبـعض الأماكن مختلفة عن الأخرى اختلافاً نوعياً (sacred & profane p. 20) وهـو يـرى أن هناك أماكن مقدسة وأخرى غير مقدسة أو

أنها عديمة البنية أو غير متناسقة أو غير متبلورة.

وليس هذا كل شيء، فالرجل المتدين يجد فى انعدام تجانس التكوين للمكان تعبيراً فى التجربة الخاصة بالتضاد بين المقدس وهو المكان الوحيد الحقيقى - وهو أيضاً المكان الوحيد الموجود فى الحقيقة - وبين الأماكن الأخرى المحاطة بامتدادات عديمة الشكل. والتجربة الدينية لانعدام التجانس فى شكل المكان هى تجربة أولية تمثلها الإنسان فى تصوره لتأسيس العالم وليس هذا الأمر تنظيرا مجردا ولكنه فى الأساس تجربة دينية تسبق كل تأمل وتفكير عن العالم . (see Ibid. pp. 20-21)

وما يذكره إلياد عن اعتقاد المتدينين الأول ينطبق تمام الانطباق على المعتقد الشعبى فى المجتمع العربى، فالأماكن تنقسم فى المعتقدات الشعبية قسمين : أماكن مقدسة، وأخرى غير مقدسة يمكن أن نطلق عليها دنيوية. والأماكن المقدسة التى ارتبطت فى العقيدة بتجلى المقدس عليها تكون قداستها بحسب درجات هذا التجلى.

والأماكن ليست على درجة واحدة من القداسة، ففيها درجات تصل إلى قمتها. وفى المعتقد الإسلامى ثلاثة أماكن مقدسة هى: البيت الحرام، ومسجد الرسول ﷺ بالمدينة، والمسجد الأقصى المعروف ببيت المقدس. ويشترك أصحاب

الأديان السماوية والمسلمون فى الاعتقاد بقدسية بيت المقدس.

وهناك أماكن أخرى تتفاوت درجات الاعتقاد فى قداستها عند بعض الأقطار وبعض المحافظات، وذلك بحسب درجات إيمانهم بقدسية مكان أو عدمها، غير أن هناك أماكن يجمع على قداستها، فالبرية، ومواطن الماء، والغابة، والمقابر مقدسة فى المعتقد الشعبى، ولذلك أصول فى المعتقد الدينى عند الإنسان الأول وفى الأديان السماوية، ولذلك تعيش هذه الأماكن فى المعتقد الشعبى مقدسة يستجاب فيها الدعاء. وقد لعبت البرية بما فيها من جبل، أو غار، أو قفر مستو دوراً مهماً فى تجربة الإنسان الدينية.

ففى البرية بنى إبراهيم - عليه السلام - بيتاً لله يسمى ببيت الله الحرام. وأسكن ذريته حول هذا البيت ودعا ربه أن يبارك فيها : ﴿ رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ ﴾ (٣٧ : إبراهيم ١٤).

وفى البرية عرف موسى الله وبعثه الله وكلمه تكليما. ويذكر العهد القديم أن أول معرفة موسى بربه، كانت فى البرية، وفيها تسلم الرسالة، فقد تجلى المقدس على البرية، حين تجلى على موسى فقد ظهر ملاك الرب على هيئة لهيب نار، كما

تجلى الرب نفسه .

«وأما موسى فكان يرعى غنم يثرون ، حَميه كاهنِ مَدْين ، فَسَاقَ الغنم إلى وراء البرية وجاء إلى جبل الله حوريثا (٢) وظهر له ملاك الرب بلهيب نار من وسط عليقة وإذا العليقة تتوقد بالنار والعليقة لم تكن تحترق (٣) فقال : «أميل الآن لأنظر هذا المنظر العظيم . لماذا لا تحترق العليقة (٤)» فلما رأى الرب أنه مال لينظر ناداه الله من وسط العليقة (٥) فقال : «لا تقترب إلى ههنا ، اخلع حذاءك من رجليك ، لأن الموضع الذى أنت واقف عليه أرض مقدسة» (سفر الخروج الإصحاح الثالث)

وهناك أشياء يتفق فيها نص القرآن الكريم مع نص العهد القديم ، وأشياء يختلف فيها . ولكن النصين يشيران إلى قداسة هذه البرية وتجلى المقدس عليهما : فالنص القرآنى يذكر أن موسى - عليه السلام - رأى ناراً ولم يكن ملاكاً ، ولم تكن هذه النار ملاكاً للرب . . كان موسى فى حاجة إلى هذه النار ، فقد سار بأهله زمن شتاء وبرد . فلما كانت الليلة التى أراد الله عز وجل لموسى كرامته وابتداءه فيها بنبوته وكلامه . أخطأ فيها الطريق حتى لا يدرى أين يتوجه . وكانت امرأته حاملاً . فأخذها الطلق فى ليلة شاتية ذات مطر ورعد وبرق ، فأخرج زنده فقدح حتى أعيا فرفعت له نار ، فلما رآها ظن أنها نار ، وكانت من نور

الله» (الكامل فى التاريخ جـ ١ / ١٧٨).

وحين اقترب من النار سمع صوت ربه يأمره بأن يخلع نعليه ويذكر له صراحة أنه بالوادى المقدس وبأنه المختار للرسالة :

﴿ وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ ﴿٩﴾ إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى ﴿١٠﴾ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَىٰ ﴿١١﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ ﴿١٣﴾ ﴾ (٩ - ١٣ : طه ٢٠).

وقد ذكرت أسباب كثيرة لأمر الله موسى بخلع نعليه، وأهمها، وهو المتسق مع الآية الكريمة «لتنال قدمه الأرض المباركة» (المصدر السابق) فخلع النعلين مرتبط بقداسة المكان، والسؤال هنا : هل قداسة هذا المكان سابقة على هذه اللحظة أو أنها بدأت معها ؟

والأوقع والأكثر إقناعا أن القداسة تمت ساعة تجلى المقدس عليها، فى اللحظة التى رأى فيها موسى النار، وفى هذه اللحظة أصبحت هذه الأرض مقدسة.

وكما تجلى المقدس فى البرية على موسى تجلى المقدس فى البرية على عيسى - عليهما السلام - ففى البرية مكث عيسى - عليه السلام - أربعين يوماً يتعبد لله. وفى ختامها تجسد له

إبليس وأخذه إلى جبل عال جداً وأراه جميع ممالك العالم ومجدها وقال له أعطيك هذه جميعاً إن خررت وسجدت لى. حينئذ قال يسوع : «اذهب يا شيطان لأنه مكتوب للرب إلهك نسجد وإياه وحده نعبد».

(إنجيل متى - الإصحاح الرابع)

(إنجيل لوقا - الإصحاح الرابع)

وبعدها نزل عيسى - عليه السلام- إلى الأرض ليطلب من يحيى عليه السلام أن يعمده وبعد أن يتعمد يبرز عيسى للملأ على أنه المسيح المنتظر. «وإذا بالسموات قد انفتحت فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه، وصوت من السموات قائلا هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت». (إنجيل متى - الإصحاح الثالث)

ولقد تلقى محمد ﷺ الوحى أول ما تلقاه فى غار فى جبل حراء فى البرية. فقد «حبب الله إليه الخلوة فلم يكن شىء أحب إليه من أن يخلو وحده» (عيون الأثر ١ / ٨٢)

ويروى ابن اسحق عن وهب بن كيسان عن عبيد :

«كان رسول الله ﷺ يجاور ذلك الشهر من كل سنة، يطعم من جاءه من المساكين، فإذا قضى رسول الله ﷺ جواره من شهره ذلك كان أول ما يبدأ به إذا انصرف من جواره الكعبة قبل

أن يدخل بيته، فيطوف بها سبعاً أو ما شاء الله من ذلك، ثم يرجع إلى بيته، حتى إذا كان الشهر الذى أراد الله تعالى به فيه ما أراد من كرامته من السنة التى بعثه الله تعالى فيها، وذلك الشهر شهر رمضان، خرج رسول الله ﷺ إلى حراء كما كان يخرج لجواره ومعه أهله حتى إذا كانت الليلة التى أكرمه الله فيها برسالته ورحم العباد بها، جاءه جبريل عليه السلام بأمر الله تعالى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب، فقال : اقرأ، قال : قلت : ما أقرأ؟ قال : فغتنى به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى فقال : أقرأ، قال : قلت : ما أقرأ. قال : فغتنى به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى فقال : أقرأ، قال : قلت : ماذا أقرأ؟ قال فغتنى به حتى ظننت أنه الموت، ثم أرسلنى فقال : اقرأ. قال : فقلت : ماذا أقرأ؟ ما أقول ذلك إلا اقتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى فقال : ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ ﴿٣﴾ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ ﴾ [العلق: ١ - ٥] قال: فقرأتها. ثم انتهى فانصرف عنى، وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتابا. قال: فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول: يا محمد. أنت رسول الله، وأنا

جبريل . قال : فرفعت رأسي إلى السماء أنظر فإذا جبريل في صورة رجل صاف قدميه في أفق السماء يقول : يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : وقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف عنه وجهي في آفاق السماء ، يقول : يا محمد ، أنت رسول الله وأنا جبريل . قال : فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر . وجعلت أصرف وجهي عنه في آفاق السماء ، قال : فلا أنظر في ناحية منها إلا رأيته كذلك . فما زلت واقفا ما أتقدم أمامي وما أرجع ورائي حتى بعثت خديجة رسلها في طلبي فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف في مكاني ذلك ، ثم انصرف» . (السيرة النبوية ، جـ ١ ، ص ٢١٩ - ٢٢١)

وهكذا اجتمع لأنبياء الأديان السماوية الثلاثة أن يكون بداية إعلان رسالتهم في البرية ، ولذا لم يكن غريباً على المعتقد الشعبي أن تكون البرية من الأماكن المقدسة التي تستجاب فيها الدعوة .

ولقد كانت دعوة خضرة أم أبي زيد إلى الله أن يمنحها طفلا - في رواية عبد الرحمن قيقة في البرية - دعوة مستجابة ، فكانت بذلك نبوءة لميلاد البطل أبي زيد .

وكما تعد البرية مكانا مقدساً فإن المقابر تعد أيضا من

الأماكن المقدسة ، فهى برية وتزيد عليها أنها مكان تستقر فيه أجساد الموتى .

وقد عدت المقابر فى الكثير من الأديان مكاناً مقدساً فكان للمقبرة وضع مهم فى الديانة المصرية القديمة وفى ديانة الشامان . فعند الشامان أن الروح تستقر قريبة من الجسد ، وعند المصريين القدماء أن الروح ستعود إلى الجسد فى المقبرة .

ولقد احتفى اليهود بالمقابر وأصبحت بعض مقابر عبادهم مزارات مقدسة يعتقد أن الدعوة عندها تستجاب . وأقام المسيحيون فى المعتقد الأرثوذكسى والكاثوليكى للقديسيين مزارات تزار ويعتقد أن الدعوة فيها تستجاب .

واهتم المعتقد الشيعى الإسلامى بمزارات الأئمة اهتماماً كبيراً ، وتعد مشاهدهم من الأماكن المقدسة . وليس اهتمام الكثيرين من أهل السنة بمشاهد قبور أهل البيت فى مصر بأقل من اهتمام الشيعة ، فقبور الحسين والسيدة زينب والسيدة نفيسة والسيدة سكينة من أهم المزارات التى يرى كثير من المصريين المسلمين زيارتها واجبة عليهم .

وإذا كان الاحتفاء بمقابر القديسين ظاهرة واضحة فى المعتقدات الشعبية فإن للمقابر حرمة كبيرة أيضا ، ففيها يسكن الجسد ، وفى التصور الشعبى أن أرواح الموتى تحوم حول

الجسد، فهى حية فاعلة لا يتوقف دورها بموت صاحبها، وعلى قدر درجة صلاحه أو طلاحه تكون فاعليتها، فالصالح تصبح روحه صالحة قادرة على فعل الخير والمشاركة فيه. والطالح تصبح روحه شريرة قادرة على فعل الشر والمشاركة فيه، فالمقبرة على هذا مسكن للأرواح، ولذلك تكتسب قداستها، ومن هنا فإن الدعوة فيها غالباً ما تستجاب، وإليها لجأ بيبرس فى ليلة القدر، ففتحت له فيها طاقة القدر التى يستجاب فيها الدعاء.

ولقد عدت مواطن الماء من الأماكن المقدسة التى تستجاب فيها الدعوة، وأجمعت الأديان على طهارة الماء وقداسته. فالديانة المصرية القديمة ترى أن أول موجود فى الكون إنما هو الماء، فهو الإله الأول «نون» والد جميع الآلهة «وأن مكاناً عالياً من الأرض كان أول ما ظهر على سطح ذلك الخضم القديم الذى سموه : نون. وكان هذا المكان بمثابة بدء العالم، فهو التل الموغل فى القدم، وفوق هذا التل القديم ظهرت المعالم الأولى للحياة».

(ديانة مصر القديمة ص ٧٢، ٧٣)

وفى سفر التكوين من العهد القديم - يبدأ بذكر الماء مقترنا بروح الله بأنه يرف على وجه المياه : (١) فى البدء خلق الله السموات والأرض ٢) وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه

الغمر ظلمة وروح الله يرف على وجه الماء». (العهد القديم - الإصحاح الأول)

ويذكر القرآن الكريم أن الماء أصل الحياة

﴿أَوَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ﴾ (٣٠ : الأنبياء ٢١).

وجعلت اليهودية من الماء وسيلة للطهر، كما بنيت شعيرة التعميد في المسيحية على الماء. وقامت عليه في الإسلام شعيرتان من شعائر العبادة الأساسية، الاغتسال، والوضوء. فالصلاة لا تتم إلا بالوضوء وطهارة الجنب لا تتم إلا بالاغتسال. والوضوء والغسل لا يتمان إلا بالماء في حالة وجوده، والموتى لا يدفنون - فريضة على الأحياء من المسلمين - إلا بعد الغسل.

واستخدام الماء للتطهر شعيرة مصرية قديمة. ويرى م. إلياد - متفقاً مع ج. دانيلو - أن التعميد رمز للطوفان فمثلما واجه نوح بحراً من الموت الذي دمر البشرية الخاطئة وخرج منه الإنسان سالما، فإن الإنسان المعمد من جديد يهبط في ماء حوض المعمودية الكنسي ليواجه تنين الماء في معركة بالغة الضراوة يخرج منها منتصرا (Ibid p. 134) ويرى إلياد أنه بتحليل القيم الدينية للمعتقد في الماء فإن من الخير وظيفياً ربطه ببنية الرمز، فالرمز يلعب دوراً حاسماً في الحياة الدينية وقادراً على إظهار تساميه» (Ibid. pp. 129-130)

وهناك كثير من علماء الأديان يحاول أن يرد السلوك الإنسانى الشعيرى إلى الرمز والعودة به إلى سلوك غاية فى القدم، والأمر لا يحتاج إلى كل هذا التأويل، فالتأويل الرمزى للشعيرة ومحاولة تفسير القداسة من خلاله يخرج الشعيرة عن سياقها ليعيدها إلى سياق عالم بعيد عنها، فمحاولة ربط التطهر بالماء، بالتطهر بالطوفان على أنه رمز له محاولة مصطنعة وغير مقنعة، ولو استطعنا أن نقرب بينهما لقلنا إنهما تماثل. ولكن تطهير الطوفان كان الموت، وتطهير الماء - سواء أكان تعميداً أم غسلاً - هو إعادة حياة، فمعتنق المسيحية حين يعمد، ومعتنق الإسلام حين يغتسل إنما يكتسب حياة جديدة، وفرق كبير بين الموت والحياة، فالشعيرة الدينية واقع يماثل واقعاً، وليست محاولة تمثيلية لحدث سابق على وجود الإنسان يحاول أن يعيشه بالرمز، فالدين بكل معتقداته هو حقيقة المعتقد، والشعيرة هى أيضاً حقيقة الممارسة.

وفى الماء تكون الحياة ولا حياة دونه، لذا فلا يتم التطهير إلا به إن وجد. ولا حاجة للإنسان إلى أن يبنى سلوكاً يمارسه على أنه رمز لحدث سابق لا علاقة له به إلا كونه يمثل التاريخ من وجهة النظر الدينية للإنسان، فالطوفان فى حقيقته كان أداة موت للكفار، والتعميد أو الاغتسال حقيقته أداة حياة للمؤمنين.

ومن خلال الواقع الذى يؤمن به الإنسان فإن العالم يصبح أكثر وضوحاً وقادراً على إبراز تساميه، بينما التفسير المبنى على الرمز للشعيرة قد يوضح للباحث أمراً ولكنه يزيد الأشياء غموضاً فلا يصبح قادراً على إبراز تسامى العالم.

والأمر بسيط جداً فيما يخص قداسة الماء، فهو حياة الإنسان، ولا توجد الحياة إلا حيث يوجد الماء، ويوجد الموت حيث ينقطع الماء، ومن هنا كان نبع الماء مكاناً مقدساً، فالبئر والعين والبركة ومسيل الماء من نهر أو نهير، والبحيرة والبحر، أمكنة مقدسة، وكثير من المسلمين يعتقد أن من عصى الله فى البحر فكأنما عصاه على أجنحة الملائكة، أى أن ارتكاب معصية فيه إنما هو فسوق وفجر يفوق جزاؤهما جزاء العصاة فى البر .

ولما كانت المياه تمثل الحياة للإنسان عبدها الإنسان الأول، وتصورها قوة كونية عليا، فعبد المصريون النيل وعدوه أوزوريس، وكانت لعيون الماء فى مناطق الصحراء قداسة لا تقل عن قداسة النيل عند المصريين، فقد كانت عين عذارى هى العين المقدسة عند أهل أوال (البحرين القديمة) ، كما كانت بئر زمزم مقدسة عند العرب فى الجاهلية ومازالت مقدسة عند المسلمين واحتفت بها المعتقدات الشعبية. وتذكر روايات سيرة بنى هلال - باستثناء رواية عبد الرحمن قيقة - أن خضرة

الشريفة دعت ربها بجوار الماء أن يمنحها غلاماً. واختلفت الروايات فى كون هذا الماء عيناً أم بركة أم نهيراً أم بحراً.

وإذا كان المكان المقدس قد لعب دوراً مهماً فى استجابة الدعوة لتصبح نبوءة، فإن الزمان المقدس كان عاملاً بارزاً فى استجابة الدعوة أيضاً. وقد يرتبط ارتباطاً كبيراً بالمكان، ومع هذا الارتباط فقد يكون المكان مقدساً بذاته، كما يكون الزمان مقدساً بذاته.

الــزمـــان

والزمان مثله مثل المكان، قد تكون له قداسته عند معظم شعوب العالم وفى جميع المعتقدات البشرية، فهناك زمان مقدس وآخر دنيوى. والزمان لا يتساوى فى قداسته، فهناك أيضا درجات لهذه القداسة. ويذكر إلياد أن الزمن مثله مثل المكان ليس متجانساً ولا مستمراً (Ibid) فالزمان يعاد ميلاده ويبدأ ثانية؛ لأن العالم يخلق من جديد مع كل سنة جديدة... ولما كانت السنة الجديدة هى إعادة تحقيق الصورة الكونية، فإن هذا يتضمن بدء

الزمن مرة أخرى أى العودة إلى نقطة البداية، بمعنى استعادة الزمان الأول. الزمان النقى، الذى وجد لحظة الخلق. ولهذا السبب كانت بداية السنة الجديدة مناسبة للتطهير والتخلص من الخطايا وطرد الشياطين أو مجرد التكفير عن آثام العام المنصرم بتقديم أضحية (Ibid pp. 77-78).

والحديث عن بداية العام قد يكون تفسيراً أولياً للزمن. وفى فلسفة المعتقد السنى الخالص لا يوجد لهذا المعتقد مكان.

ولكن هذه الفكرة باقية فى المعتقد الشعبى، وهى ليست مرتبطة ببداية العام، سواء أكان فى التقويم الشمسى أم فى التقويم القمرى وإنما هى مرتبطة بيومين، أحدهما متصل بالتقويم الشمسى والآخر متصل بالتقويم القمرى، فاليوم المقدس المتصل بالتقويم الشمسى هو يوم شم النسيم وفيه كان المصريون - قبل السد العالى - يعتقدون أن النيل يجدد مياهه ومعها تتجدد الحياة، وكثير من نساء الريف يذهبن ليملأن جرارهن من النهر ويسكبن مياههن أمام منازلهن، بركة من الحياة الجديدة.

واليوم القمرى هو يوم منتصف شعبان وفى ليلته يعتقد كثير من المسلمين أن قدر الإنسان يكتب فى هذه الليلة إن كان سعيداً أو شقياً، وتحدد فيها مواليد العام المقبل كما يحدد فيها موتى العام التالى، ومن هنا كان دعاء ليلة النصف من شعبان

فى كثير من مساجد ريف مصر دعاء مهماً .

وليس مرد ذلك إلى العودة إلى الزمن الأول النقى وإنما رده إلى تجلى المقدس فى هذا اليوم بما يسمى اليوم المبارك .

ومن الأيام المباركة أيام الأعياد كعيد الأضحى وعيد رمضان ، فعيد الأضحى هو احتفال بتجلى المقدس على إبراهيم عليه السلام ، ففى هذا اليوم أراد أن يذبح ابنه إسماعيل تصديقاً لرؤيا رآها ففداه ربه بذبح عظيم : ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلامٍ حَلِيمٍ ﴿١٠١﴾ فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ ﴿١٠٢﴾ فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ ﴿١٠٣﴾ وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿١٠٥﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ الْبَلاءُ الْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ ﴿١٠٧﴾﴾ (١٠٧ : الصافات ٣٧)

ومن هنا أصبح هذا اليوم يوماً مقدساً عند المسلمين فيه يكون حجهم وفيه تكون أضحيتهم لله ، والأيام التى حوله السابقة والتالية له مرتبطة به .

وعيد رمضان مرتبط بختام شهر مقدس ، وهو شهر رمضان ، الشهر التاسع من السنة القمرية ، فهو مرتبط بموسى - عليه السلام - وبمحمد ﷺ ، ويعتقد المسلمون بأن هناك علاقة بينه وبين عيسى عليه السلام ، ففى حديث عن رسول الله ﷺ أنه

قال : « أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة ليلة خلت من رمضان ، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان » . (البداية والنهاية جـ ٣ / ٧)

ومن الثابت الذى لا خلاف فيه عند المسلمين أن القرآن أنزل فى رمضان ، فهذا الشهر بكل أيامه ودقائقه وثوانيه مقدس ، وتقف فى قمة هذه القداسة ليلة القدر ، فهى الليلة التى نزل فيها القرآن وهى خير من ألف شهر : ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلامٌ هِيَ حَتَّىٰ مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝٥ ﴾ (١ - ٥ : القدر ٩٧)

وهناك أيام أخرى يستحب فيها الدعاء قد تكون مرتبطة باعتقاد خاص : كأن يكون يوم التكوين الأول للكون ، مثل السبت عند اليهود ، والأحد عند المسيحيين ، والجمعة عند المسلمين . كما أن هناك أياماً ترتبط قداستها بجماعة دون أخرى فى مكان دون آخر عند نفس المعتنقين لعقيدة واحدة . قد تكون هذه المنطقة مرتبطة بولى خاص بمنطقة من المناطق ، فتعد أيام مولده أياماً مقدسة عند أبناء هذه المنطقة .

ولا شك فى أن هذه القداسة لها أهميتها فى عناصر النبوءة ، وسنبدأ هنا بدراسة الرؤيا .

الـــرؤيـــا

حـملت الرؤيا كـثيـراً من النبـوءات عن ميلاد البطل فى كـثير من السـيـر الشعبيـة. ولفظ الـرؤيا كـثـيـراً مـا يسـتـخـدم مـرادفـاً للحلـم. وقـد يفــرق بعض المسلمــين من المتدينين بأن الرؤيا من الرحـمن والحلم من الشيطان. وقد يفرق بينهما اصطلاحياً بأن الحلم لا يكون إلا فى النوم، بينـمـا الرؤيا تكون فى اليـقظة. أو فى حـالة بـين النوم واليـقظة. ولا يهتم جـمـهور العامة كـثيـراً بهـذا التـفـريق، فـالـرؤيا حلم والحلم رؤيا، وقد يستخدم كلمة حلمت مرادفة لكلمة

(شفت) فهو قد يقول : «شفت خير اللهم اجعله خير... شفت أنى..» وقد يقول: «حلمت خير اللهم اجعله خير حلمت أنى... وقد يرد عليه سامعه فيقول له شُفْت خير اللهم اجعله خير ... » على تصور أن ما يراه الراوى إنما هو رؤيا أو حلم صادق.

وليست كل رؤيا يراها الإنسان صادقة.

فالرؤيا أنواع منها الصادق ومنها غير الصادق، أو ما يسمى بأضغاث الأحلام، وقد روى عن الرسول ﷺ أنه قال : «الرؤيا ثلاثة، فرؤيا بُشرَى من الله تعالى، ورؤيا من الشياطين، ورؤيا يحدث الإنسان بها نفسه» (تفسير الأحلام الكبير، ص ٧)

والرؤيا يراها الصالح والطالح، «وقد يرى الكافر الرؤيا فتكون حجة عليه» (المصدر نفسه ص ١٧) كما حدث فى حلم الملك فى سورة يوسف. وفى هذه الآية أيضا ما يؤكد أنه يشترط فى مفسر الرؤيا أن يكون من الصالحين، فرؤيا يوسف كانت أولاً ليعقوب ليستقر يقينه بأن ابنه فى أمان. ولم يكن ذلك ليخفف عنه، فقد كان ألم يعقوب ألم فراق الابن المحبوب. إنه يعلم أنه سيلتقى به قبل موته وسيراه سيدا، ولكن ذلك لا يعزيه عن فقده له.

وقد اشترط للمعبر مع صلاحه لكى ينفذ إلى علم الرؤيا

ثلاثة أصناف من العلم : أولهـا : حـفظ الأصـول ، ووجـوهـهـا واختلافها ، وقوتها وضعفها فى الخير أو الشر لتعرف وزن كلام التأويل ، ووجوهها ، واختلافها .

والثـانى : تـأليف الأصـول ، بعـضـهـا إلى بعض حـتى تخلص كلاماً صحيحاً على جوهر أصول التأويل وقوتها وضعفها ويطرح عنها من الأضغاث والتمنى وأحزان الشيطان وغيرها مما يضر الرؤيا .

والثـالـث : شـدة فحص الرؤيا ، والتثبت فى المسألة حتى تعرف حق المعرفة (المصدر نفسه ص ١٥ - ١٦) .

وهناك شـرطان مهـمـان للرؤيا الصـادقـة همـا مكـان الرؤية وزمـانهـا ، وقد اشـترط فى المكان الطهـارة ، إلا أن شـرط المكان ليس أساسياً ، فالرؤيا قد تكون للصالح والطالح ، ولكن رؤيا الصالحين فى المكان الطاهر تؤكد صدقها . أما الزمان فإنه فى غاية الأهمية ، فالرؤيا فى نور النهار تختلف عن الرؤيا فى الليل ، ويذكر ابن سيرين أنه قد تعبر الرؤيا بالوقت كقولهم فى راكب الفيل إنه ينال أمراً جسيماً قليل المنفعة . فإن رأى ذلك فى نور النهار طلَّق امرأته أو أصابه بسببها سوء . وفى الرحمة أنها إنسان أحمق قذر . وأصدق الرؤيا بالأسمار بالأسحار وبالقائلة . وصدق الأوقات وقت انعقاد الأنوار ووقت ينع الثمر

وإدراكه وأضعفها فى الشتاء. ورؤيا النهار أقوى من رؤيا الليل (المصدر نفسه ص ١١ - ١٢).

وهذا النوع من الرؤى الصادقة لا يراه إلا المتصلون بالبطل اتصالاً وثيقاً فقد يراها حاكم سيتصل به البطل أو تراها الأم نفسها أو امرأة فى مقام الأم.

- ١ -

وقد رأى كسرى حلما خاصا بحمزة، كما رأى الخليفة الهادى رؤيا خاصة بعبد الوهاب بن ذات الهمة، ورأى الملك الصالح رؤيا خاصة بالظاهر بيبرس. أى أن الرؤيا قد يراها الحاكم الملك عدواً كان أو صديقاً للبطل. كان حلم كسرى نبوءة بمولد حمزة البهلوان ومستقبله فقد كتب عليه أن يرفع يد الفُرْس عن العرب، وأن ينشر دين الله، ويهدم معابد النيران، فهو بطل قومى يحمل راية التوحيد. كان أول من أدرك هذه النبوءة هو بزرجمهر وزير كسرى أنو

شروان من خلال رسالة أدركها من رؤيا كسرى، فلقد رأى أنه جالس فى إيوانه على سريره الخاص، منفرداً عن حاشيته وقد جاع حتى تضور جوعاً، وإذ بمائدة من الذهب تقدم إليه على صحن من العاج منقوش بالنقوش الفارسية، وبداخله إوزة كبيرة مقلية بالسمن تنبعث منها رائحة شهية، تاقت نفسه إليها، وقد حركه الجوع ليتناولها، وإذ بكلب هائل المنظر، قصير القوائم، كبير الرأس، يتدلى وَبَره إلى الأرض. هجم عليه ونبح، وكشر عن أنيابه فخاف منه ورجع إلى الوراء وبعد ذلك تقدم من الإوزة، فأخذها فى فمه، وأراد الخروج من الإيوان وكسرى يتألم ويتململ، والجوع يأخذ به ويزيده ضعفاً، ولا يقدر على استخلاص طعامه من فم الكلب، وقبل أن يخرج الكلب رأى أسداً عظيماً يدخل من الباب، وحين وصل إلى الكلب ضربه بيده وألقاه ميتاً، وتناول الإوزة من فمه وأعادها إلى كسرى دون أن يلحق بها كرهاً. (قصة الأمير حمزة. ص ٣ - ٤).

ولقد تكرر الحلم مرة أخرى فاستيقظ مرعوبا، ولم يستطع أحد أن يفسر هذا الحلم سوى وزيره بزرجمهر، فهو قد رأى أن الله سبحانه وتعالى أراد أن يظهر ما سيكون على دولة الفرس وما يأتى عليها قبل حدوثه بسنين وأعوام، فالمائدة التى رآها كسرى وقدمت له من الذهب الوهاج هى مدينته وعاصمة

ملكه، والصحن والإوزة التى عليه هما خزينة كسرى، وسريره الجالس عليه الآن، والكلب الذى اختطف الإوزة هو فارس يظهر فى حصن خيبر يطرق بلاده بالعساكر والأجناد فيدخلها ويتملكها ويحاصر العاصمة. وبعد حروب طويلة يتملك كرسى المملكة ويطرد كسرى من بلاده. أما الأسد الذى رآه فى منامه فهو فارس يظهر فى الحجاز عظيم القدر والشأن يأتى لتخليص ملك كسرى، وليرجعه إلى سريره ويقتل عدوه.

لم يكن ذلك كل تفسير الحلم فقد أخفى بزرجمهر جزءاً من تفسيره دون أن يطلع عليه كسرى حرصاً على آرائه؛ لأنه رأى الفرس قد أصبحت فى شيخوخة وأن الفارس الذى يظهر من الحجاز يرفع يد الفرس عن العرب ويهدم معابد النيران ويقع بينه وبين الدولة الكسروية حروب قوية تفضى بها إلى الخراب والدمار وينشر دين الله وعبادته بين عبدة الأوثان وناكرى الحق سبحانه وتعالى». (السيرة، ص ٥).

وإذا كانت رؤيا كسرى مرتبطة بعدو البطل فإن رؤيا المهدى الخليفة العباسى لعبد الوهاب بن ذات الهمة رؤيا صديق وقد لعبت دوراً فى تبرئة شرف أمه والتنبوء لابنها عبد الوهاب بأنه سيكون ناصر رسول الله ﷺ ومن به تسير كلمته. وقد ذهبت جموع العرب من بنى سليم وبنى الوحيد وبنى كلاب إلى

الخليفة المهدى ليفصل فى النزاع بين الحارث بن ظالم وبين ابنة عمه ذات الهمة بنت مظلوم، فهو يتهمها بالفساد وينكر أبوته لابنها عبد الوهاب. وقد رفض من قبل حكم الإمام جعفر الصادق.

وكان الخليفة المهدى قد جمع إليه العلماء والفقهاء والقضاة والأشراف والأمراء وأرباب الدولة ليفسروا له مناماً قد رآه. وقبل أن يقص عليهم منامه استأذن عبد الله أمير القوم فى الدخول على الخليفة فأذن لهم فدخلوا وهو جالس علىٰ كرسى خلافته، والموضع هامد من هيبته، والأمراء والوزراء وأرباب الدولة قيام على الأقدام، والمجلس قد شملته الهيبة وجللته السكينة والوقار، والخليفة مطرق برأسه كثير الأفكار، فتقدم إليه أمير القوم وقبل الأرض بين يديه وكذلك فعلت ذات الهمة ووالدها مظلوم. وبعدها تبادرت أمراء بنى كلاب يقبلون الأرض بين يدى الخليفة ووقفت الأميرة ذات الهمة وبين يديها ولدها عبد الوهاب والخليفة مطرق ساكت وكل واحد قد شملته هيبة الخلافة.. ورفع الخليفة رأسه مستفسراً عن أسباب ترك الأمير ورجاله ثغر «ملطية». فأخبره أنه جاء إليه ليفصل فى قضية عبد الوهاب، ونسبه إلى أبيه وبعد أن قص عليه قصة ذات الهمة وابن عمها الحارث وابنهما عبد الوهاب نقَّل الخليفة بصره بين

الحاضرين وتوقف عبد الوهاب وأخبر عبد الله أنه سمع من غيره قصته، ونادى على الطفل وأخذه وقبله بين عينيه بعدما أجلسه على ركبتيه والناس قد داخلهم العجب وهم ينظرون إليه.

فلما فرغ الخليفة من ذلك أقبل على الحاضرين من العلماء والفقهاء والقضاة والأشراف والأمراء وأرباب الدولة وقال لهم: فى أى شىء أحضرتكم. فقالوا : يا أمير المؤمنين أحضرتنا وأنت تقول إنك رأيت مناما، وتريد أن تقصه علينا ثم قلت لنا فى المنام شريك ونحن فى انتظاره، وهؤلاء قد دخلوا علينا، فقال الخليفة: الله أكبر، الله أكبر، وحق النبى المطهر فخر ربيعة ومضر، هذا الصبى الذى كان شريكى البارحة فى المنام وهو كأنه بدر التمام، والسبب فى ذلك أننى فى ليلة من الليالى بعد أن صليت العشاء الأخيرة ونمت فرأيت ابن عمى محمداً ﷺ فى المنام وفى يده عرق رطب جنى فقلت يارسول الله قتلنى الشوق إليك وقد أحببت السلام عليك صلى الله وسلم عليك، فقال : ها أنا جئت إليك من الجنة بهدية وأريد أوصيك بوصية، فقلت ما هى الوصية يا رسول الله؟ فلم يردْ على، بل صار يلقمنى لقمة ويطعم هذا الغلام أخرى، فلما نظرت إلى ذلك قلت : يا رسول الله، من هذا الغلام الذى تقسم بينى وبينه هذ

الرطب. وقد سبب الله تعالى هذا السبب، وهنا ذكر الرسول ﷺ للمهدى النبوءة الخاصة بعبد الوهاب، فهو غلام مظلوم متهوم الزور والبهتان والعدوان، وقد نظر الله تعالى إلى كسر قلبه فعوضه من شقاء الدنيا بنعيم الآخرة، فقال وهو من يطلب نصرتى، وبه تسير فى الدنيا كلمتى، يبذل نفسه فى طاعة الله وطاعتى وهنا طلب الرسول الكريم من المهدى أن ينصره على عدوه حين يحضر بين يديه.

(قصة الأميرة ذات الهمة. م٢ جـ٨ ص ٢٥٥ - ٢٧٧).

***

وكانت النبوءة التى عبرت عن قدر الظاهر بيبرس حلماً وحدساً ودعوة، وكانت كشفاً من الملك الصالح أيوب وفتوحاً على بيبرس نفسه. ففى ليلة من الليالى رأى الملك الصالح أيوب مناماً، أجمع العلماء فى مجلسه على أن رؤيا هذه الليلة صادقة، فهى السابقة من الشهر العربى والقمر فى ازدياد وهو غير منحوس، فقص الملك عليهم منامه... فقد رأى كأنه فى بر أقفر متسع الجهات ليس له أول يعرف ولا آخر يوصف، فبينما هو كذلك إذ نظر إلى ذلك الوادى فرآه قد امتلأ ضباعاً من كل الجهات. ونظر بعينه فوجد نفسه وحيداً بلا مساعد ولا رشيد غير الملك المجيد، فأخذ يدعوه طالباً منه النجاة مما هو فيه، وحين

اشتد كربه وكدره إذ بغبار قد ثار وعلا وسد الأقطار وانكشف بعد ساعة للنظار وإذ بخمسة وسبعين سبعاً قد أقبلوا من الهضاب وهم فى أعظم همة وأشد استحباب يتقدمهم سبع عالى القدر وسيع الصدر والمحجرة، له وجه مليح أشقر حلو الشمائل والمنظر كدائرة القمر، فهجم ذلك الأسد، وصار فيهم كالليث إذا احتدَّ، وتبعه أصحابه من السباع، ومازالوا فى حرب شديدة إلى أن افترسوا الضباع، وقطعوا منهم النخاع، وجعلوا الأرض منهم خالية، ولم يبق منهم بقية. ومن شدة ما لاقاه الملك فى رؤياه استيقظ من منامه.

فسر العلماء له هذه الرؤيا، فالضباع هم أهل الكفر والضلالة والخداع والنفاق والملالة، ولابد أن يتحركوا لأذاه فتخرج لهم السباع، ويقتلونهم قتلاً فى البقاع. فالإسلام سينتصر بهؤلاء السباع، وتستقيم بهم كامل الأحكام. وسيأتى مع هؤلاء السباع سبع كبير وهو كبير القوم، ومشتت أهل اللؤم.

وهنا اقترح عليه العلماء أن يشترى عدداً من المماليك من مال السلطنة يكونون له خاصة، ويكونون لنصر الإسلام، فإن المنام يدل على ذلك. (السيرة م١ جـ١ ص ٦٩ - ٧٠)

ونفذ الملك ما أشار به العلماء فطلب من وزيره شاهين أن

يتولى الأمر ويشترى المماليك. أرسل شاهين بدوره إلى شيخ تجار الرقيق فأرشده إلى تاجر بالحسينية يدعى على ابن الوراقة، وكان قد أصابه الفقر والذل والهوان بعد العز وعلو الشأن. فكان هذا الطلب خيراً له . فقد وصف بأنه «رجل قد من الله عليه بالفهم والفطانة، حتى أنه إذا سمع حديث أى إنسان يعرف هو من أى جنس» (ص ٧٣) . فاستدعاه الوزير شاهين وطلب منه أن يتولى الأمر ويشترى خمسة وسبعين مملوكا ويكونون مراهقين من ثلاثة أجناس، شركسية وجرجية، وأباظية.

وإلى هنا لا يرد ذكر للسبع الذى سيقود السباع. إلا أن الملك جدد صفة هذا السبع القائد لعلى بن الوراقة حين التقى به في اليوم التالي. فقد حدد له بأنه طالب منه حاجة أخرى وهى أن يشترى له مملوكاً يكون خاصة لنفسه فيه شروط محددة : أن يكون فهيماً وفطيناً يحفظ القرآن، ويكون وجهه حسناً. وإذا غضب يكون في وجهه جدريات تملكه من الطارقة اليمنى إلى الطارقة اليسرى، ويكون بين عينيه شعرة أسد، وبين حاجبيه سبع من اللحم، هذا عند الغضب، وإذا راق لم يكن لذلك عنده أثر ولا سبب. ولم يبق بعد كل هذه الصفات المحددة للمملوك الذى يريده الملك الصالح سوى اسمه ولم ينس أن يذكره له،

فاسمه محمود .

وأعطاه الملك صرة وطلب منه أن يعطيها للبائع حين يجده وأوصاه ألا يفتحها وألا يحاول أن يعرف ما بها .

(م١ جـ٢ ص ٨٠)

وسافر التاجر حتى وصل مدينة بورصة فوجد ضالة الملك الصالح خمساً وسبعين مملوكاً يملكهم الأمير مسعود بك . رأى على ابن الوراقة فى المماليك الصفات التى طلبها الملك الصالح ، فعرض على الأمير شراءهم منه فرفض رفضاً قاطعاً حتى أنه غضب وطلب منه أن يغادر البلد وأمر جنده إن وجدوه فى اليوم التالى مقيماً فيها أن يقتلوه ، وإن وجدوه مرتحلا أن يتركوه ، وهنا يلعب الحلم دوراً فى توجيه الأحداث لتتحقق النبوءة ، فإنه «لما أمسى المساء ونامت كل عين يقظانة . ودام الديموم وظهرت النجوم ، واطلع الحى القيوم ونام الأمير مسعود بك واستغرق فى منامه ولذيذ أحلامه وإذ بيد وقعت على صدره مثل جبل أحد وكادت روحه تفر من الجسد ، وقد رأى القائل يقول له : «فتح عينيك واسمع بأذنيك ، أنا الملك الصالح الفقير إلى الله . وعزة الربوبية أن تعطى علياً المماليك بالكلية وإلا نفذت هذه الحربة من ظهرك ، وصار بيدى أخذ عمرك ، وجعلت يومك كأمسك ، فانظر لنفسك ودبر أمرك إما

أن تسلم المماليك تسلم ، وإما أن تسلم نفسك أو تعدم ويأخذهم عليٌّ من بعدك ، ثم صاح فيه ، فانتبه من نومه مرعوباً (ص ٨٦) . وقد رأى عليٌّ مناماً يدفعه لإنهاء الصفقة التى خرج من أجلها ، فقد رأى الملك الصالح فى منامه بعد أن نام وهو يفكر فى نفسه «فما يشعر إلا ويد على صدره كأنها ريش النعام أو هبوب الرياح العظام والقائل يقول له : يا على اعلم أنى أنا الرجل الفقير الملك الصالح ، يا ولدى غداً يأتى إليك مسعود بك بن عثمان ، ويعطيك المماليك بالأمان فاشتر منه بما يخلصك ، فوعزة ربى لن يقدر على خلافك لو أعطيته فيهم كيساً من التراب» (ص ٨٧) . وصدق ما رآه على فى نومه فإن مسعود بك بعد أن استيقظ من نومه أرسل فى طلب على ثم ذهب إليه بنفسه ، وأبلغه موافقته على إعطائه المماليك ، ورفض أن يأخذ ثمنهم وقدمه هبة منه لعلى . كان ينقص هؤلاء المماليك السبع القائد وقد وجده على فى حمام بورصة ، ولقد أخذ على المماليك إلى الحرم وعند دخولهم إليه شم الغلمان رائحة كريهة فتبينوا مصدرها فإذا به غلام مريض قد آلمه المرض الشديد ، ومضى عليه ثلاثة أيام وهو لا يأكل ولا يشرب ولا ينام من شدة المرض ، وقد نفر منه الغلمان ومنهم من بصق عليه ولم يشفق عليهم إلا غلام منهم اسمه أيدمر الذى عاد إلى على بن الوراقة

يسأله أن يشتريه وحببه فيه فهو من أولاد الملوك فذهب ليراه ويسأله عن اسمه فلما عرف أن اسمه محمودا ساوره شك فى أن يكون هو الغلام الذى طلبه الملك الصالح فحاول أن يتعرف على بقية الأوصاف التى حددها الملك فى السبع القائد، فوجده يحفظ القرآن ويقرأ الكثير من العلوم، وأثاره فإذا بالغضب يزداد به ، فتأمله ابن الوراقة فإذا السبع جدريات تظهر بين عينيه، ملكته من الطارقة اليمنى إلى الطارقة اليسرى، وشعرة من الأسد بين عينيه وسبع من اللحم بين حاجبيه (ص ٩٠ - ٩١).

سأل ابن الوراقة عن صاحب الغلام فعرف أنه محمود المسارع فسأله أن يبيعه إياه فأخبره الرجل بأنه على استعداد أن يبيعه ولو بصرة من التراب فأدرك ابن الوراقة أنها كرامة الملك الصالح، فناوله الصرة كما أمره الملك الصالح فأخذها الرجل ولم يفتحها.

ولم يتوقف الحلم فى بناء حياة بيبرس ليوجهه نحو تحقيق النبوءة. فقد ساعده فى أن يكون له أصدقاء وأتباع يلعبون دوراً فى حياته البطولية، وكان الصديق الأول الذى كسبه من الحلم هو أيدمر، فإن عليا قد طلب منه أن يحميه فى الحمام، وهناك أخذ يجرده من ملابسه وكانت من الجلد ثم أراد أن يقلعه

قميصه فأبى محمود، فتحير أيدمر، ثم أخذتهما سنة من النوم فرأى كل منهما فى منامه الملك الصالح ولى الله الناجح، يقول لكل منهما أوثق عهد الله بينك وبين أخيك لتزول الحرمة بينكما وتصيران إخوة وأنا وربى شاهدان عليكما » (ص ٩٢) وعندما استيقظا من نومهما تعاهدا عهد الله أن تجمعهما الطاعة، وتفرقهما المعصية، ودعوا الله أن يتوب عليهما، وأن يقتل الله الخائن، وأشهدا الله عليهما، فكان هذا أول العهود والمواثيق التى قادت بيبرس ليبدأ طريق البطولة .

أما العهد التالى الذى لعب فيه الحلم دوراً رئيسا فى كسب أنصار أقوياء عاهدوه عهد الإخاء أن يكونوا من أهم جنده وعلامة من علامات بطولته، فهم الفداوية أولاد إسماعيل نسل على بن أبى طالب . تصفهم السيرة بأنهم الذرية الأطايب يقيمون فى الجبال لأخذ الغفر من التجار كما حدد النبوءة وجعلها تعلن بوضوح لا لبس فيه فهو سيصير ملكاً وسلطانا عليهم وقد مروا على ابن الوراقة وطلبوا الجعالة القديمة - التى كان يدفعها - والجديدة ثمناً لمروره. فبات ابن الوراقة ليله محاصراً وهو يعلم أنهم لابد أن ينهبوا أمواله، ولم يَقر له قرار طيلة الليلة حتى طلع الصباح، وإذ بالفداوية أبناء إسماعيل أقبلوا عليه ينادونه بالأمان، فتعجب من ذلك، غير أن عجبه

زال حين عرف حقيقة السبب «وذلك أن المقادم لما أعاقوا علياً ومنعوه عن السير، وتقرر الأمر بينهم على نهب الكبير والصغير، وقد هجم عليهم الليل بالمساء فأخذهم المنام، فرأوا فى منامهم الملك الصالح أيوب ولى الله المجذوب وهو يقول لهم : يا أولاد إسماعيل وحق الملك الجليل إن لم تكرموا علياً لأجل خاطرى ولأجل هذا الضعيف لأشتتكم فى جميع البلاد بالتعنيف وإنى أعلمكم أن هذا الغلام هو الذى قد شاع ذكره فى جميع البلاد عندكم فى حفظ الزمام وهو الذى يصير ملكاً وسلطاناً على مر الليالى والأزمان وأنكم تكونون أهل دولته وأصحاب عزه ومملكته وحبايبه ورفقته، ويبقى لكم الفخر الكامل وتلبسون أفخر الملابس وتركبون أعظم الركايب وتتقلدون بالشواكر الذهبية والطاسات الكوكبية، فأكرموا علياً هذه المرة ولا تأخذوا منه دينارا ولا عشرة وانظروا إلى هذا المملوك، وعاهدوه لأجل أن يكون لهم أخاً ورفيقاً، وهو يدعوكم وأنتم تدعونه من غير تفريق وقد أعلمتكم بما فى علمى ومن خالف منكم أمرى صار خصمى، وشكيته يوم القيامة لجدى، والسلام على نبى تظلله الغمام»(٩٥) . وحين انتبه الرجال من نومهم عرفوا أنهم جميعاً اشتركوا فى رؤية واحدة، فأدركوا أن ما رأوه حقاً وأنها ليست أضغاث أحلام

وليست من الشيطان ، فقاموا إلى ابن الوراقة ليروا محمودا فأوقع الحب في قلوبهم ، وتمكنت المحبة في فؤادهم ، فأوثقوه عهد الله أن يكون له ما لهم وعليه ما عليهم .

وكما تلقى الحاكم عدواً أو صديقاً للبطل النبوءة بالبطل فقد تلقتها الأم أيضا .

وهناك ثلاث أمهات لثلاثة أبطال تلقين النبوءة الخاصة بالابن فى المنام.

لقد رأت الرباب الرؤيا الخاصة بابنها جندبة وحفيدها الصحصاح، كما رأت مريم رؤيا تخص ابنها عرنوس، وكذلك رأت امرأة تقف من بيبرس موقف الأم نبوءة خاصة به .

لقد رأت الرباب زوجة الحارث بن عامر بن صعصعة بن كلاب وهى حامل فى منامها ولذيذ إحلامها كأنها فى صحراء وحولها فسيح البرارى المقفرة ، فتقدمت

إلى تل عال ، وقد انكشف ذيلها وخرجت من تحتها نار متأججة ، ولها ألوان متوهجة ، فخرجت إلى الأرض فحرقت جميع ما عليها ، ما بعد منها وما قرب ، ثم بعد ذلك استدارت واستنارت فانتبهت فزعة مرعوبة ، وسألها زوجها عن سر انزعاجها فأخبرته بما رأت فى منامها ، وفى الصباح خرج الحارث يريد كاهنا من الكهان ليفسر له المنام ، وإذ بوفد قد أقبل ومعهم شيخ كبير ، والقوم يشيرون إليه بالتوقير . أدرك الحارث أن الشيخ جدير بالتعظيم ، فقص عليه منام زوجته ، فأخبره الشيخ بأن زوجته ، تلد مولودا له شأن وأى شأن ، لم يكن مثله فى هذا الزمان ، ويخرج من صلبه ولد عظيم ، أعظم منه وأدين منه ، وأتقى ، وأحسن ، غير أنه يخاف على والدته من الموت عند ظهوره إلى دار الدنيا والسلام .

(قصة ذات الهمة ، م١ جـ١ ، ص ٦-٧)

ثم أخذ الحارث الشيخ إلى حلته وأبلغ المرأة بصورة أوضح بمستقبل ابنها وحفيدها :

أخبرك بتعبير المنام   وما شفتيه فى جنح الظلام
يجى مولود منك كثير حرب   له ذكر يدوم على الدوام
ويطلع فارسا بطلا شجاعا   يثير الحرب فى جمع الأنام

ويربى يتيما بغير أب ولا أم ويطلع بحر طام
ويأتى منه صنديد مهاب لأهل الكفر يضرب بالحسام
وهذا دل عندى فى علومى شرحته لك بتفسير المنام
(ص ٨)

لقد اقتنع الحارث بصدق تفسير الشيخ للمنام، فلم يهتم الحارث لنفسه إن مات أو عاش، فقد سعد أن يأتيه هذا المولود. وحرصاً عليه وعلى نسبه كتب الشيخ منام المرأة فى كتاب بدأه: بـ «هذا ما كتبه الحارث ابن صعصعة بن كلاب وهو لاحق بنسبه» وبعد أن انتهى من الكتابة طواه وجعله فى قصبة من الفضة وسلمه إلى الأم وطلب منها أن تعلق القصبة على المولود ساعة ميلاده.

وكما لم تفهم أم جندية ما رأت فى منامها، فإن أم عرنوس أحد أبطال سيرة الظاهر بيبرس تلقت نبوءة عن مستقبلها ومستقبل ابنها. ولم تفهم هذه الرؤيا ولم تعرف تفسيرها، ففسرها لها شيخ الإسلام النووى.

لقد أرسل ملك جنوا الرين حنا إلى الملك الصالح أيوب رسالة يبلغه فيها أن ابنته مريم وهى ذات حسن وجمال وقدّ واعتدال قد اعتراها مرض. فنذر إن هى شفيت أن يرسلها لتزور الغمامة المقدسة عند المسيحيين. وشفيت الفتاة ويريد أن يبر

بوعده، فعلم أن الملك الصالح قد أمر بسد الغمامة، لذا فهو يطلب منه أن يرسل من طرفه أحدا يغفر ابنته، من يافا إلى الغمامة، ومن الغمامة إلى يافا، ويأخذ خمسة آلاف شريفية حق طريقه ويرسل مع الخطاب هدية له وفرمانا وخزنة مال (السيرة: م٢ جـ١١ ص ٦١)، وقبل الملك الصالح المهمة وأرسل للمسئول عن الغمامة بفتحها وفكر فى أن يرسل الخطيرى وهو من أبناء عمه الأكراد إلا أن الخطيرى ذكره أن المسئول عن غفر بنات النصارى هو سلطان القلاع والحصون من الفداوية معروف بن حجر بن أسد، فأرسل إليه الملك الصالح الظاهر بيبرس ومعه رسالة يطلب فيها أن يغفر ابنة الرين حنا حتى بيت المقدس.

أخذ بيبرس معه عثمان الحيلى ليصحبه فى رحلته إلى معروف وبعد أن التقى بيبرس بمعروف عاهده أن يكون أخاه فى عهد الله تعالى وعلى ما يرضى الله ورسوله : وأعطاه بيبرس خطاب الملك الصالح فوضعه على رأسه بعد أن قبله، وأقسم أن يذهب بنفسه ليغفر الفتاة، وألا يأخذ أجراً على ذلك - وقدم المال هدية للأمير بيبرس الذى قدمه أيضاً هدية لأتباع معروف بن حجر.

ذهب معروف مع بعض رجاله إلى يافا ليستقبل الفتاة وأقام

ينتظر وصولها خمسة أيام، وفى اليوم السادس أقبلت مريم الزنارية بنت الرين حنا فى غليون وفى صحبتها مائة بطريق. فأرسل إلى الغليون أحد أتباعه يخبرهم بأنه قد جاء المكلف بتوصيلها إلى بيت المقدس فرفضت الفتاة أن تخرج معه وطلبت أن يأتيها الشخص المكلف بغفرها، فذهب معروف إليها، وعندما رآه البطارقة بهتوا، فقد كان كالقمر الزاهر بين الكواكب، جميل الصورة جميل المنظر» (ص ٦٩) وأخذوا يتأملون حسنه وجماله وقدَّه واعتداله. وحين نظرت إليه مريم أخذتها هيبة عظيمة ووقع حبه فى قلبها من ساعة أن نظرته ونظرها. أما معروف فإنه حين وقع نظره عليها رأى شمساً مضيئة إذا هى أشرقت على كامل البرية، فكفّ بصره، وأومأ إلى الأرض، حياء، مبهوتاً، ولم يرفع رأسه إليها أبداً، لأنه رآها ذات حسن وبهاء وكمال وقدٍّ واعتدال.. ولم تتوقف مريم عن النظر إليه والتأمل فيه، وكلما مر الوقت ازدادت به غراماً وهياماً.

وفى ضحى اليوم التالى أمر معروف الرجال بالارتحال، فحملوا معهم الأموال، والأثقال على ظهور الخيل وركبت مريم فى تختروان، وركب معروف ورجاله على ظهور الخيل يحيطون بها وبأتباعها إلى أن وصلوا إلى بيت المقدس.

ونزلت مريم في الخيام، وأقامت للراحة ثلاثة أيام، وفي اليوم الرابع دخلت الغمامة، ووقف معروف على بابها ثم انصرف إلى المسجد يريد الصلاة حتى تنتهي مريم من زيارتها. وفي المسجد وجد الشيخ النووي يلقى درسه، فجلس بعد الصلاة من بعيد ليستمع إلى الشيخ وقد جلس وكفى برنسه على رأسه. أما مريم فإنها بعد أن دخلت الغمامة التقت بأحد الرهبان وقصت عليه حلما رأته وقالت له : وجدت نفسى فى واد أحقر أقفر ما فيه من الماء ولا قطرة فعطشت، فضاقت نفسى من شدة العطش، فسرت فرأيت بحراً أشد بياضاً من اللبن وأحلى من العسل، وأنا فى شدة الظمأ، وتيقنت أن روحى عادت، ثم إنى تكرعت بجانب ذلك النهر فخرجت من فمى ذبابة سوداء قدر النحلة وسقطت إلى التراب، والتهبت بالنار، وأنا أنظرها بعينى ثم أقبلت نحوى ذبابة بيضاء فدخلت فى فمى فابتلعتها، وقد استقرت فى جوفى، ولم تفزع نفسى منها، وازداد حبى فيها، ثم تأملت ذلك البحر فرأيت مركباً فنزلت فيها وعديت إلى البر الثانى، وطلعت من المركب، فرأيت نفسى فى واد وسيع ذى أطيار وأنهار كثيرة الماء، فأتيت تحت شجرة عالية ورقدت تحتها، وإذا بالهوى قد هب على فارتفع ذيلى ونزل على طير من أعلى تلك الشجرة فنقرنى بمنقاره فى

كشتواني ، فكبرت بطني وخرج منها طير أبيض صغير ففرحت به وأردت أن ألعب به ، وإذا بطيّر أسود قد انقض على وأخذه مني وطار به في الهوى ، حتى غاب عن عيني وجعلت أبكي وأنوح عليه حتى أني انتبهت من منامي ولذيذ أحلامي فهذا ما رأيت » (ص ٨١) .

لم يفسر الراهب حلم مريم التفسير الذى تستريح إليه . وحدثت أشياء بينها وبينه أدتها إلى الهرب منه جرياً حتى دخلت إلى المسجد الأقصى . وبينما تتأمل المكان رأت الأستاذ النووى وصحبته أهل العلوم وهم يقرأون العلم والطلبة حواليه وأقبلت نحو واحد منهم وسألته إن كان هذا بترك المسلمين . وغضب العالم منها ونهرها ، وكان الشيخ يسمع كلامها فلم ير في كلامها أى إهانة ، وسأله أن يسألها عما تريد من بترك المسلمين فأخبرته أنها رأت مناما تريد منه أن يفسره لها ، فطلب منها الشيخ أن تلتف بشال وتجلس خلف ظهره حتى ينتهى الدرس . فجلست وقد وقع بقلبها كلام الشيخ ولذ بعقلها ، ولم تزل تستمع حتى انتهى الشيخ من درسه ، ثم التفت إليها واستمع إلى منامها وأخذ يفسره لها ، فأخبرها بأن الوادى الأقفر هو دين الكفر ، وقد أنقذك الله منه ، وأما الوادى الأخضر فهو دين الإسلام ، وكذلك الذبابة السوداء وهى دين

الكفر، وقد خرجت ظلمة الكفر من قلبك، والذبابة البيضاء التى راحت فى فؤادك هى كلمة الإخلاص، يا سعد من عليها توفى، لو وضعوا جميع الأكوان فى كفة وهى فى كفة ما رجح إلا هى، وهى قول لا إله إلا الله محمد رسول الله، وأما السفينة فهى سفينة النجاة وأما الطير الذى هو من أعلى الشجرة، هذا رجل كبير من رجال الأشراف يتزوج بك فى الحال، وتأتين منه بذرية صالحة، ولكن تتربى بعيدا عنك» (السيرة، جـ٢ ص ٨٢). لم يتوقف الشيخ النووى عند هذا وإنما أخذ يقوم بدور فى تحقيق الحلم فقد أبلغها بأنها إن أرادت السلامة فعليها إخلاص النية لله تعالى، وأن تُسْلِم. استجابت مريم لكلماته، فأسلمت، قلباً، ولساناً، وجوارح، وأعضاء، وزاد نور وجهها بالإسلام، وهدأ روعها وانفتح قفل قلبها. وهنا تقدم أكثر من واحد من أتباع الشيخ ليخطبها منه، فرفضتهم الفتاة وأشارت إلى المقدم معروف وأخبرته برغبتها فى الزواج منه، وحين حضر معروف أخذه الشيخ ملء أحضانه وباس معروف يده، وقبل الشيخ رأسه وصدره، وناداه باسمه وأقسم الشيخ أن ما أخبره بذلك غير جده المصطفى ﷺ، وما قام إلا إكراما له، فعند إقباله هب نور النبى محمد ﷺ بينهما.

أخبر الشيخ النووى معروفاً بأن مريم تريد الزواج منه،

فامتزج بالغضب واحمرت وجنتاه وتوقد بالاحمرار، وأخبر الشيخ بقصة الفتاة، وظهر تردده من هذا الزواج، فشجعه الشيخ النووى ونصح له ألا يطيل الكلام فى هذا الموضوع، فهو سيكتب كتابها، ويعطيه فتوى تكون له سلاحاً يعرضها على الملك الصالح أيوب، ويقسم الشيخ أنه إن أبطلها أبطل رجاه بإذن الله (ص ٨٣ - ٨٤) .

قام الشيخ النووى بدور الأب فقد اختارته وكيلا لها فى عقد زواجها، وطلب الشيخ النووى من معروف أن يمهرها، فأخرج من جيبه عقدين من الجوهر، يساوى كل واحد منهما خمسة آلاف دينار ذهب .

وبعد العقد كتب الشيخ فتوى لمعروف بصحة هذا الزواج، وكتب عليها اسمه وختمها وأعطاها له .

عادت مريم ومعروف إلى الخيام واستعد الجميع للرحيل واتجه معروف بالركب إلى قلعته، فلما اعترض وزير أبيها بحجة أنهم يريدون العودة إلى يافا حتى يرحلوا إلى بلادهم، أصر معروف على ضرورة ضيافتهم فى حصنه، وطلعت مريم إلى أعلى مكان فى الحصن، وأقيمت الأفراح مدة ثلاثين يوماً، وأهل مريم يشاركون فى الرقص، واللعب، والأكل، دون أن يدروا شيئا مما حدث، حتى كانت ليلة الزفاف دخل معروف على

مريم فرآها غصن بان على كنيف من الزعفران ورأته أحسن منها قدا وأطول شعراً وأكحل عيناً فدخل عليها، وقد تفتحت أعضاؤها بإذن خالقها ومولاها فحملت من وقتها وساعتها (ص ٨٤ - ٨٦) ليبدأ الحلم بعد ذلك طريق التحقيق ليعيش ابنها عرنوس كما ذكرت النبوءة في الحلم ويربى بعيداً عن والديه.

وقد شاهدت رؤيا محمود امرأة في حكم أمه اتخذته ابنا لها، وعاملته معاملة الابن وهى السيدة حسنة. فقد كان محمود هو الوحيد من بين أبطال السير الذى تلقى النبوءة بنفسه ساعة ضيقه لتنير له الطريق. وكانت السيدة حسنة هى مشاركته فى رؤية ما شاهد رؤية عيان. فقد كان محمود يرى فى منامه، بينما تشاهد السيدة حسنة هذا المنام فى الواقع فى يقظتها، فحلم محمود فى نومه هو رؤيا حسنة ساعة اليقظة. لقد رأى محمود فى حلمه من أهل الطريق، السيد أحمد البدوى، والدسوقى، والجيلانى، وصاحب الوقت يخبرونه بما كتب عليه فى غده، وأنه سيكون ملك الزمان وفارس العصر والأوان ويقدمون له الدواء الذى يشفيه ليبدأ الطريق بعدها لتحقيق النبوءة.

لقد أخذ ألم المرض يجهد محموداً حتى أنه كان فى غالب

أوقاته لا ينام، وقد وضعت له سيدته فوق رأسه صحناً كبيراً من الكشك فوقه ديك وجعلت تنتظره حتى يأكل. أما محمود فلم يأكل شيئا وقد أجهده السقم فأعجزه عن النوم غير أن مدبر الأكوان قدر له فى تلك الليلة أن يعرف ما كتب عليه، فنام واستغرق فى النوم، بينما السيدة تنتظره، إذ قد ظهر نور عظيم يأخذ البصر السليم - والسيدة ترى فى اليقظة ومحمود يرى فى النوم - وفى عقب النور ظهر رجل عابد زاهد شكور فلما أقبل ذلك الرجل صاح بسم الله... بسم الله، المكان خال يا عباد الله. وعند النداء أقبل رجلان وقد وضعوا الكراسىّ فى الجهتين، ثم أتوا بكرسىّ كبير، وضعوه فى صدر ذلك المجلس، وصاح الرجل الأول - وهو نقيب الرجال - وهو يقول : يا سادة الأرض ذات الطول والعرض، أحضروا ذلك المحضر كما أمر قطب الأقطاب الأكبر سيدى أحمد البدوى، والشريف العلوى - صاحب الإمداد النبوى - فعند ذلك أقبلت الرجال كأنها الأقمار ، وجلسوا ذات اليمين وذات اليسار ووقف النقيب بين أيديهم يمدح مرشدهم وهاديهم، حتى تكامل الديوان، وحضرت كامل الإخوان ثم قالت الرجال : أين السلطان، وبطل الأبطال، وعين كل إنسان، فقال لهم النقيب تأنوا حتى يحضر باقى الأقطاب، ثم أخذ يمدح الرسول الحبيب

وبعد أن فرغ من مدحه، أقبل الثلاثة أقطاب يتبعهم رجل تصفه السيرة بأنه فحل الرجال الأجواد، صاحب العطايا والإمداد، كثير العدل والرشاد وخادم باب سيد العباد، وبيده قضيب خيزران ما فيه اعوجاج، وبين يديه المنادى ينادى يا أبا فراج، وليس أبو فراج هذا سوى الملك الصالح فهو السلطان الذى كانوا يسألون عنه.

ويبدو من الطريقة التى كان الأقطاب يكلمونه بها أنه كان قطب الأقطاب، فقد كان الملك الصالح سلطانا فى عالم الواقع، كما كان سلطانا فى عالم الباطن، فهو سلطان الحقيقة والشريعة. وقد أمر الرجال بالكلام فتكلم الأقطاب بالنبوءة الخاصة ببيبرس.

قال الأول : يا سلطان الرجال وبطل الأعيان هذا ملك الزمان وفارس العصر والأوان وهو الذى ينصر الإسلام ويقيم الأحكام ويذل جيوش اللئام . وقال الثانى وقد تنبأ بأن بيبرس سيفتح السواحل والبلاد وتطيعه أهل السواد وينصره النبى الهادى. أما الثالث فقد ذكر أنه سبق فى علم الله أن كل شىء بقضاء الله وطلب من الجميع أن يدعوا له. ولم ينفض المجلس فقد استمر الأقطاب يعبرون عن أحاسيسهم تجاه بيبرس ويدعون له فذكر السيد البدوى أن بيبرس ابنه، ولابد أن يأخذ

عهده ويحفظ وده، ثم دعا له الله العظيم رب موسى وإبراهيم وزمزم والحطيم أن ينصره على جميع أعدائه، ويذل له العتاة.. وسأل الدسوقى ربه العظيم رب موسى الكليم أن يرى بيبرس ليلة القدر ويكون دعاؤه فيها مجاباً، أما الجيلانى فكان دعاؤه أن يعلى الله قدره ويدبر أمره ويهدئ سره ويطيل حكمه. وكان دعاء صاحب الوقت له: اللهم اشف كل من كان فى هذا المكان لأجل خاطر هذا الإنسان. وبعد أن قرأوا الفاتحة طلب السلطان الكشك من عند رأس الغلام فأخذه وعده هدية عظيمة، ودعا لكل من يأكل منه بالشفاء، ثم دعا ربه أن يشفى كل من أكل منه. ولعق لعقة من الكشك ثم طلب من النقيب أن يضع الطعام مكانه ثم نفض السلطان المنديل كما يصنع فى مجلس ملكه فى اليقظة وانفض المجلس، وسار كل منهم إلى حال سبيله» (السيرة ١٠١، ١٠٣).

وعندما استيقظ محمود وجد الكشك فأكل منه ونام. ولما كانت السيدة حسنة المشاهدة الوحيدة على هذا العطاء الكونى الذى أعطيه محمود، فأخذت تقدم له الكشك بيديها وتطعم به الضعفاء ليمحى عنهم السقم والأنين، وليبدأ الطريق لتحقيق النبوءة التى أبلغها فى رؤياه.

- ٣ -

ولعل الرؤيا الوحيدة التى يراها الأب عن ابنه البطل كانت رؤيا جندبة الكلابى، وكانت هذه الرؤيا بردا وسلاماً فى قلبه جاءت إليه ساعة ضيق وقنوط لتساعده أن يودع دنياه مطمئن البال مرتاح النفس. فقد دخل جندبة معركة مع أمير طيئ وملكها الغطريف بن مالك الطائى بسبب فرسه مزنة، وانتهت المواجهة بينهما بأن اختلفت بينهما طعنتان كان السابق بالطعنة الأمير جندبة من فرط محبته لمزنة. وكان الغطريف فارساً قد لقى كل مصيبة

ومحنة، فلما رأى السنان وصل إليه مال عنه بمعرفته إلى أن جازه السناس وكسر حدته ثم طعنه مجاو بالطعنة فوقعت فى فخذه شكتـه إلى جـانـب الحـصـان الذى أحس بهـا فـوقع بجندبة إلى الأرض، فأوهنه. ولما رأت بنو كلاب أميرها قد وقع على الأرض ركنوا إلى الفرار، وتبعهم بنو طيئ كى يضربوا منهم الرقاب، إلا أن ملكهم الغطريف أوقـفـهم. ولما توقف الطلب عن بنى كلاب عادوا إلى الميدان ليتفقدوا قتلاهم فوجدوا جندبة جريحاً فعادوا به إلى المضارب وقطبوا جراحاته لكن رجله بطلت ولم يعد يمشى إلا على عصاه وقد طمع قومه فيه وقل فى أعينهم، وتضعضع حاله ونفرت منه رجاله وعلم أن أمره قد صار غير نافذ، وقد أصابته الهـزيمة بالحزن والألم فتنازل عن الإمارة لأخيه. وانفرد عن الناس ولبس الخشن من اللباس وتواترت عليه الأمراض والعلل، وتغيرت عليه الأحوال وجفاه كل صديق، وانقطع عن زيارته كل رفيق، فجلس فى بعض الأيام يفكر فى أحواله، وتفرق رجاله، وتمنى أن يكون له ابن يأخذ بثأره ويقهر عدوه، وأنشد قصيدة تلخص أزمته وعبر فيها عن أمنيته :

تَولّتْ نعْمتى وَمضَى زمَانى ... وَهَا أنَا قدْ بَقيتُ كَمَا تَرَانى

فَيَوْمُ الْعِزّ كُنْتُ أعَزَّ قَوْمى ... وَأسْبَقَهُمْ إلى نَيْلِ الأمَانى

وَمُذْ فَارَقْتُ مزْنَةَ عَاد عَزْمى ... إلى ذُلّ يُجَدّدُ بِالهَوانِ

عَدِمْتُ رَكُوبَها فَعَدمْتُ صَبْرى ... وَبَانَ تَجلّدى وَوَهى جنَانى

تَرى قَبْلَ الْممَات أرَى قبَابى ... رَفيعَات العَوامد وَالْمَبَانى

وَيَرْزُقُنى الإلَهُ فَتى كَرِيمَا ... يَصُولُ على الفَوَارسِ بالطّعَانِ

وَيَأخُذُ منْ عدَانا الثّأرَ قَهْرا ... بِضَرْبِ السَّيْف مَعْ طَعْنِ السنّانِ

وَيَأخُذُ مزنة منْ تَحت خَصْمى ... وَيَقْهَرُ مَنْ يُعَانِدُ فى الزّمَانِ

أنَا الْمَغْبُونُ فى هَزْلى وَجدّى ... فَيَا مَوْلاىَ جُدْ لى بالأمَانى

وبعد أن انتهى جندبة من إنشاد شعره صلى ركعتين لله تعالى ، ونام فرأى فى منامه قائلا يقول : يا جندبة أبشر فإن الله تعالى يعوضك عن رجلك الجنة ، ولابد أن ترزق ولدا يخلفك من بعدك ويملك البلاد وتطيعه العباد فاشكر الله على الحال ، ولا يضيق صدرك على إذهاب المال .

انتبه جندبة من نومه وهو متعجب من ذلك المنام وأخذ ينتظر إلا أنه مات قبل أن يعلم بخبر حمل زوجته ، فأصاب بنى كلاب الحزن ، وبكى عليه الرضيع منهم والفطيم والمشايخ والشباب . وبعد موته ظهر الحمل على زوجته ، لتأخذ النبوءة طريقها للتحقق (قصة ذات الهمة ، م١ جـ٢ ، ص ١٠٩ - ١١٢) .

الإلهـــام

لا تكاد سيـرة من السيـر تخلو من دور فيـها للإلهام، وليس ذلك بعجيب، فلقد كان للإلهام دور كبير فى المعرفة البشرية ، فقـد اقترن به الخلق الفنى . فبعـد أن كان العـامل المحـقق للإبداع الفنى فى تصـور القدماء أصبح عند كثير من علماء النفس يمـثل مـرحلة رئيسـة من مـراحل الإبداع ، فهو عند بعضـهم عملية عقلية تحدث على نحو مفاجئ تنتظم من خلالها وبفضلها مجموعة من العناصر المشتقة فى سياق جديد له معناه ، ويساعد على مواجهة

المشكلة بطريقة جديدة ، فبالإلهام تصل العملية الإبداعية إلى قمتها ، وتشرق الفكرة كاملة فجأة على ذهن المبدع أو المفكر ، وفى تلك اللحظة تنتظم الأمور كل فى مواقعها الصحيحة. ويتحدث كثير من المبدعين على الطبيعة المباغتة لإلهام الفكرة، ويسميها (ديلاكروا) بأنها صدمة كالانفعال، يختل ساعتها اتزان المبدع، فيحاول أن يمضى إلى اتزان جديد فيتولد فى الذهن حالة وجدانية عنيفة حتى تبلغ الحماسة درجة ينساب معها فى الذهن سيل من الأفكار والصور . ولهذا نجد (نيتشه) يصرخ من تلك النشوة بسبب روح البهجة التى تمتلكه عند كتابته «هكذا أيضا تكلم (زرادشت)».

(انظر، آفاق جديدة، ص ٥٣ - ٥٥)

وهذا البحث لن يتوقف عند مفهوم الإلهام كما يراه علماء النفس فى علاقته بالخلق الفنى ، وإنما يتناوله هنا كأداة من أدوات المعرفة . ولقد حدد أبو المعين النسفى - وهو أحد فقهاء الأحناف - أسباب العلم للخلق بثلاثة : « الحواس الخمس والخبر الصادق والعقل » (التمهيد ، ص ٢) وهو يدخل الوحى الإلهى دائرة الخبر الصادق فهو عنده على نوعين : «أحدهما الخبر المتواتر الثابت على ألسنة القوم : والثانى خبر الرسول المؤيد بالمعجزة وهو موجب للعلم الاستدلالى ، والعلم

الثابت بالضرورة فى التيقن والثبات » (ص ٢) . والوحى ثابت مقرر عند أصحاب الأديان السماوية ، ولكل دين من هذه الأديان رأى فيها ، كما أن لكل مذهب موقف من الوحى، ولكنهم يجمعون على الإقرار به ، والوحى يخص الأنبياء وهو متعدد الجوانب، فهناك أكثر من طريق يتصل فيها النبى بربه ، لذا فإن الوحى ليس موضوع هذا البحث وإنما موضوعه الإلهام وذلك لأن الإلهام متحقق للإنسان الصالح كما يتحقق للإنسان العادى وهو مختلف عن الحلم أو الرؤية إذ إن المعرفة صورة تقذف من أعلى إلى العقل فتبدو وكأنها مشاهدة ترتبط بالصورة التى تحيله إلى كلمة ، بينما الإلهام يقذف من أعلى إلى اللسان أو الأذن فيبدو منطوقاً أو مسموعاً يرتبط بالكلمة التى تحيله إلى صورة ، والإلهام مختلف عن الحدس فهو يتطلب معرفة سابقة، فقد يتكون الحدس بعد مجموعة من الوقائع أو الظواهر فهو معرفة ظنية قائمة على أرضية من الواقع أو شواهد لا يفسرها العقل وإنما يفسرها الحدس : كالحكم على شخص أو توقع شيء تكون له دلائل سابقة ، ويصعب معه تفسير الحكم تفسيراً عقلياً فهنا يفسر بأنه حدس ، بينما يختلف الإلهام عن ذلك إذ إنه لا يتطلب معرفة مسبقة . وقد عرفه ابن منظور بأنه: ما يلقى فى الروع ويستلهم الله الرشاد، وألهم الله فلانا، وفى

الحديث أسألك رحمة من عندك تلهمنى بها رشدى ، والإلهام أن يلقى الله فى النفس أمرا ، أو الترك وهو نوع من الوحى يخص به الله من يشاء من عباده » (لسان العرب : مادة لهم) ، وكما ذكرت هذه الكلمة فى الحديث النبوى فقد ذكرت فى القرآن الكريم : ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ۝٨﴾ (٧ - ٨ الشمس : ٩١) ، وفسرت (ألهم) بعدة معان : فهى فى رواية عن ابن عباس بمعنى بيَّن فيفسر الآيه بقوله بيَّن « الخير والشر » ويشترك مع ابن عباس فى هذا الرأى قتادة والضحاك بن مزاحم . فيفسرها مزاحم بمعنى بيَّن لها فجورها وتقواها ويفسرها الضحاك بمعنى : بيَّن لها المعصية والطاعة .

ويروى عن مجاهد أنه فسرها بيُعَرِّفُها كما فسرت مروية عن عمران ابن حصين عن حديث لرسول الله صلى الله عليه وسلم بمعنى قد قضى عليهم . (انظر جامع البيان جـ ٣٠ / ص ٢١٠)

وقد تابع ابن كثير فى تفسيره الطبرى فى هذه المعانى فلم يضف إليها شيئا (انظر تفسير القرآن العظيم ، جـ٤ ص ٤٥١) واستخدمها الزمخشرى بمعنى الإفهام والإعقال (الكشاف ، جـ ٤ ص ٢٥٨) . ويصبح من المعانى المجازة لكلمة ألهم بيَّن وعرَّف

وقضى وأفهم وأعقل. ويصبح معنى كلمة إلهام: البيان والتعريف والقضاء والإفهام أو الإعقال. وسيكون استخدام هذا الفصل للمعنى الشائع للكلمة وهو البيان والتعريف الذى يتلقاه الإنسان من غير طريق الحواس، أو العقل أو الإخبار من بشر، ومن هنا أخرجت الإفهام أو الإعقال حيث إنهما بالضرورة يستلزمان استخدام العقل ووجود مادة تكون أساساً للفهم وأخرجت كلمة قضاء لأنها لا تعنى تلقى المعرفة. فهذا البحث يستخدم الإلهام بمعنى البيان والمعرفة التى تلقى إلى الإنسان من عل أو من عالم غير عالمه، ولقد كثر وجود أمثال هذه المعرفة فى السير الشعبية لتكون نبوءة للبطل وميلاده ومستقبله وأثبتت السير صحتها، وتشكل بهذه النبوءات أحداث السيرة وبنيتها. ويمكن تحديد الإلهام الذى ورد فى السير بأربعة :

الأول : صوت يسمع يحمل نبوءة توجه صاحبها ليقوم بفعل فيه نبوءة بالمستقبل .

والثانى : كلمات تخرج من فم رجل يعانى سكرات الموت تعد كلماته إلهاما .

والثالث : كلمات تعد إلهاما من شخص صالح.. يتنبأ فيها بمستقبل بطل أو عدة أبطال .

والرابع : دعوة مستجابة من شخص صالح، رجلا كان أو امرأة أو دعوة مظلوم فى مكان أو زمان مقدسين .

- ١ -

يذكر جابر أبو حسين فى روايته عن الهلالية أن رزق والد أبى زيد كان حزيناً لأنه كان يبحث حواليه عن طفل يلاغيه، فلا يجد، مع أنه لم يكن فى ذلك الوقت متزوجاً

بَالُوح بعينى يمين وشمال
على طفل عندى يلاغينى
جاتنى الليالى سوده وشو مال
قادر يارب انت تعطينى

وبينما كان يسير فى الجبل وحيداً سمع شخصاً يخاطبه دون أن يراه، تصور هذا الشخص من قبل الله يأمره بأن يصغى للصوت، وأن يتزوج من مكة السعيدة . وحدد له صفة هذه الزوجة، وهى أن تكون شريفة من بنات الأشراف هذا إذا أراد أن تكون له ذرية :

سمع ندا من قبل الله
ياخى كل منه وسعيده
يارزق اصغ على الله

تزوج فى مكه السعيده
أمرك لربى المتعال
فى جبال امشى وشى ريفه
ال كان مرادك تخلف عيال
تزوج بعذرا شريفة

هذا الصوت يهزه فيعود إلى قبيلته مسرورا ليحادث ابن عمه الملك سرحان يستفتيه فيما سمع، فيقترح ابن عمه أن ينتظر لموسم الحج ويذهب إلى الزيارة تنفيذا لأمر الصوت فإن تحقق مطلبه يكون قد كسب الزواج والحج، فتصبح حجة بزواجه.

تروح للزيارة وترتاح
ما تطلبش ولا أى حاجة
وال كان الدور فيه نجاح
أهى تبقى حجة بحاجة

وينفذ رزق كلام ابن عمه وتأخذ النبوءة فى التحقق .

- ٢ -

يروى مدون سيرة المهلهل نبوءة يذكرها التبع اليمانى وهو يعانى سكرات الموت لقاتله كليب فهى إلهام، يضع المدون

السيرة هذه النبوءة باسم (الملحمة الكبرى للتبع حسان) وهى مروية شعرا .

يتنبأ حسان بالأحداث التى ستتلو موته حتى نهاية العالم، واختص فيها ظهور بعض أبطال العرب فتنبأ بظهور سيف بن ذى يزن، وأنه سيحكم سبعين عاما ثم يظهر له ابن يدعى بدير، ويكون شديد البأس مرفوع العماد فيملك أرض الشام :

وسيف ذو يزن بعدك سيظهر   وتصحبه السعادة فى العباد
ويبقى ملكه سبعين عاما   وبعد ذلك يطوى فى الوهاد
ويظهر له ولد يدعى بديراً   شديد البأس مرفوع العماد
فيملك فى بلاد الشام بعده   يجيب الماء من أقصى البلاد

(قصة أبو ليل المهلهل ص ٢٥)

وتنبأ لقاتله كليبا بأن ابن عمه وأخا زوجته سيقتله، وأن أخاه الزير سالم سيظهر لينتقم من قاتليه :

ويأتى الزير أبو ليلى المهلهل   فيصلى الحرب فى كل البلاد
ويقهر كل جبار عنيد   بضرب السيف فى يوم الجلاد

وتنبأ التبع له بميلاد ابن يولد بعد وفاته يسمى الجرو وحدد الدور المكتوب على الابن أن يقوم به فى حياته وهو الثأر من خاله قاتل أبيه.

ويظهـر لك غـلام بعـد مـوتك	يسـمى الجـرو قـهـار الأعـادى
يقـتل على يده جـسـاسـا خـاله	....

فالنبوءة هنا تحدد للجرو دوراً مهماً فى حياة القبيلة إذ تجعله الابن المنتقم لأبيـه. وكل ما يـصنعـه المهلهل إنما هو التـمهـيـد للجرو بإضعاف قبيلة قتلة أخيه، حتى يعود الابن ليأخذ مكان أبيه فى القبيلة ويثأر لقاتله.

وشـملت ملحـمـة التبع حـسان نبوءة عن ظهور بنى هلال وذكر قصتهم باختصار. فهم سيظهرون فى بلاد السرو. ثم يتجهـون غـربا. ويبـرز منهم هلال وعـامـر، وتشـتـعل الحـرب بينهـمـا وبين حـمـيـر وإياد، ويطوفـون فى البـلاد، فـيـسـبـون أعداءهم ويمحون الأعاجم برماحهم وسيوفهم الحداد. ويقتلون شبيب التبعى بالشام، ويقتل دياب سركيس ابن نازب :

وتظهـر فى بلاد السـرو عـصبـة	فـيـقـصـد جيشـهـا غرب البلاد
هلال وعـامـر من آل قـيس	يزيد حـرب حـمـيـر مع إياد
وقـبـرص والجـزائر يملكوها	وبدريس الخـزاعى والأعـادى
شـبـيب التـبـعى بالشـام يقـتل	وتتـرك جـثـتـه فـوق الجـمـاد
وسركيس بن نازب سوف يقتل	بسـيف دياب قـهـار الأعـادى
كـذا فـرمند فى مـصـر العـدية	سـتـخـرب دورها بين البـلاد

ولم تترك ملحمة التبع اليمانى أبا زيد دون أن تذكره وتتنبأ له بدور قبلى مهم، فهى قد عددت أبطال بنى هلال وذكرته مع ابن عمه السلطان حسن.

وأبو زيد ابن عمه ليث أروع   شديد البأس فى يوم الطراد .

ولقد تحققت هذه النبوءة فى السيرة الشعبية، سواء أكانت سيرة قومية كسيرة سيف أو سيرة قبلية كسيرة المهلهل، وسيرة بنى هلال وعلى رأسهم أبو زيد كما ذكرها التبع حسان.

أما النبوءة الخاصة بمواليد الأبطال من أبناء حمزة البهلوان فقد أخبر بها رجل من رجال الله حبيس فى مغارة الأصفر الدربندى، نبوءة خاصة بالأمير حمزة البهلوان تؤكد النبوءة الخاصة به والمعلنة قبل ميلاده وتضيف عليها النبوءة بأبنائه الخمسة.

عندما التقى الأصفران الدربندى بحمزة فى ساحة القتال ضعفت قوته، وأراد أن يشهر سيفه فلم تطعه يده فنظر حمزة إلى ما حل به وما وقع فيه فاقترب منه، ومد يده وانتشله من ظهر جواد وألقاه إلى أخيه عمر العيار، وطلب منه أن يشد وثاقه وهنا صاح الأصفران باسم حمزة يطلب منه الرحمة، فتعجب الأمير عند ذكر اسمه وهو لا يعرفه فذكر له الأصفر الدربندى أنه يعرفه، وحدثه عن نبوءة الصالح الحبيس فى

المغارة، فقد قصد في يوم من مدة بعيدة التوسع في البراري والقفار، فمر على مغارة في لحف جبل، فانزوى إليها ليستظل فيها من حرارة الشمس في ذاك النهار، فرأى فيها حبيسا قد طال شعره وابيض وهرم حتى كاد يعجز عن القيام، كان وجهه يطفح بالأنوار فهيأته تدل على أنه من عباد الله، فسلم عليه الأصفران وهو مأخوذ بهيبته كل مأخذ. وعندما سمع العابد صوته ناداه باسمه، وأبلغه أنه كان ينتظره، ليأوي جسمه في التراب، فهو يعلم أن أجله قد حان ولم يبق في العمر مطمع وهو مشتاق إلى لقاء ربه. وعندما أصابت الأصفران الحيرة من معرفة الرجل باسمه، أبلغه الرجل بأن الله قد أعطاه من سابق المعرفة ما يمكنه أن يعرف ما لا يعرفه غيره، كما أن الوحي قد جاءه ليلة أمس وأخبره بأن الله يدعوه إليه وأنه سيسخر له رجلا يدعى أصفران الدربندي ليدفن جسمه في التراب، فوجدها الأصفران فرصة أن يسأل العابد إن كان هناك شخص في هذا العالم يستطيع أن يقدر على قتاله ويثبت أمامه، فأخبره أنه ولد من أعوام قليلة غلام سعيد في مكة المطهرة اسمه حمزة البهلوان، وأنه يكيده، ثم يصبح من أتباعه، ويكون له في خدمته الأكبر، فهو الذي يخلص العرب ويمتلك المدن والبلدان وينتشر صيته من مكان إلى مكان وتهابه جبابرة الزمان،

ويسأله العابد الحبيس أن يقرئه منه السلام حين يراه ، ويعطيه وديعة ستة معاضيد ليسلمها لحمزة واحدة له والخمس الباقيات لخمسة أولاد يولدون له . وينجب حمزة خمسة أولاد تكون أربعة من هذه المعاضيد وسيلة للحفاظ عليهم فقد كانت هذه المعاضيد تحمل أسماءهم حافظة لحاملها من الشر والغدر فلا تنفذ فيه المكائد ويشتد ساعده » .

(قصة حمزة البهلوان ص ٣٥ - ٧٢)

- ٣ -

ولقد صورت الكلمات التى كانت إلهاما بمستقبل البطل من أكثر من شخص فى السير الشعبية . صدرت مرة عن الأب فى لحظة مرض ، وأخرى عن الجد ، وثالثة عن رجل ملهم .

رزقت زوجة الصحصاح الأولى ليلى بابنها ظالم ، ورزقت زوجته الثانية أمامة بابنها مظلوم فعلق الصحصاح على هذه التسمية الغريبة التى تمثل تناقضا بين الأخ وأخيه فنطق كلمات كانت نبوءة بمصير الطفلين بعد ميلاد مظلوم : «لعل أن يكون خيرا فى المولود وصلاحا ، فالولد الواحد ظالم والآخر مظلوم والله إنهما اسمان عجيبان ، ولكن لهما سيرة عجيبة وأحاديث غريبة ، فكيف اتفقا على هذين الاسمين ، وإننى أخشى عليهما

أن تصيبهما العين، أو يفرق بينهما غراب البين، لأنه والله ما اتفق مظلوم مع ظالم، ولا جاهل مع عالم » (السيرة، م١ جـ٦ ص٥٣).

وتعددت صور إذاعة نبوءة أبى زيد، كان منها كلمات تعد إلهاماً صدرت من جده الشريف قرضة.

وسيرة الهلالية تحتفى بالشريف قرضة احتفاء كبيرا، فهو شريف من نسل رسول الله ﷺ، فهو الرابطة التى تربط أبا زيد بالنسب الشريف. وفى رواية عوض الله عبد الجليل يتنبأ قرضة بظهور بطل من نسل ابنته ويذكره باسمه أبى زيد فهو فارس يكيد الأعداء : قال ذلك وهو يحادث رزقاً والد أبى زيد وقد جاء يخطب ابنته

إذا جابت مولود كبر واتنشا

أبو زيد يطلع فارس يكيد العدا

وكذلك أذيعت النبوءة الخاصة بعبد الوهاب بن الحارث بن مظلوم وابن ذات الهمة عن طريق الإلهام المعلن للناس. كما أذيع عن طريق الدعوة والحلم. وكان الملهم الذى أذاع النبوءة على الملأ هو الإمام جعفر الصادق، فقد وقف الطفل أمامه مع أمه فى مواجهة أبيه الحارث. وجموع من البشر، فالأم متهمة فى شرفها والابن متهم فى نسبه.

وتعد سيرة ذات الهمة الإمام جعفر الصادق وارث القضاء عن إمام قد أظهر العجائب. وأنه قد شرب من عين اليقين. وعين اليقين هنا فى مفهوم راوى السيرة - هو الإمام على بن أبى طالب ابن عم سيدنا محمد ﷺ . الذى عقد له اللواء، فأصبح جعفر الصادق باب عنايته وهو فى جميع القول صادق وبحكم رسول الله ناطق (السيرة م٢ جـ٨ ص ٢٤٨).

لقد نظر الأمير فى وجه عبد الوهاب، وبعين عين يقينه أعلن مقسماً بالله ليكونن هذا الولد مجاهداً فى سبيل الله تعالى، وركنا للإسلام، وشهد له أن يكون ترس قبر النبى ﷺ .

وإذا كانت كلمات الأب والجد الصالحين إلهاما تحقق فإن دعوات الصالحين والمحتاجين من أب أو أم كثيرا ما كانت إلهاماً بنبوءة .

- ٤ -

وكما شاهد الإمام جعفر الصادق مستقبل عبد الوهاب وأعلنه فإنه دعا له دعوة تعد نبوءة منه بمستقبله أيضاً. لقد دعا له بالبركة فى حياته والذكر الجميل بعد مماته ومد يده المباركة على رأسه ودعا له بالسلامة والنصر على الأعداء (ص ٢٥٢ - ٢٥٣) لتكون هذه الدعوة نبوءة تتحقق فإنه يسلم وينصر دائماً على أعدائه ليكون من أكبر أبطال السيرة.

وقد دعت جدة الإمام جعفر فاطمة الزهراء دعوة أثرت فى أبى زيد الهلالى سلامة، وفى الهلالية من أجداده وآبائه وأحفاده، فكانت نبوءة تمثل وجودهم وطبيعته. هذه النبوءة انتهت بها سيرة المهلهل المطبوعة (ص ١٦٠) وبدأت بها سيرة بنى هلال المطبوعة أيضاً، ففيهما نبوءة عن مستقبل ذرية الأمير هلال حفيد الجرو و جَدِّ أبى زيد وقبيلة بنى هلال بالشتات ثم الانتصار.

كانت هذه النبوءة دعوة من السيدة فاطمة الزهراء ابنة محمد ﷺ .

يذكر فى نهاية سيرة المهلهل وبداية سيرة بنى هلال أنه :

«اتفق أن هلالاً زار مكة فى بعض السنين فى أربعمائة فارس كرار وكان وقتئذ النبى المختار ﷺ وعند وصوله إلى مضارب الخيام طاف رجاله حول الحرم وتشرف بمقابلة النبى ﷺ ، وقبله بين عينيه وأمر النبى ﷺ أن ينزل فى وادى العباس فى تلك الأيام يحارب بعض العشائر، فعاونه الأمير هلال وأمده بالعساكر، وقاتل معه، وكانت فاطمة الزهراء رضى الله عنها راكبة فى هودجها، فلما رأت الحرب زجرت جملها لتخرج عن مشاهدة القتال، فشرد بها فى البرارى والفلوات. ولما رجعت دعت على من كان السبب فى البلاء والشتات، فقال لها والدها

ﷺ : ادعى لهم بالانتصار، فإنهم بنو هلال الأخيار، وهم لنا من جملة الأحباب والأنصار. فدعت لهم فنفذت فيهم دعوتها على طول الدهر» (قصة المهلهل، ص ١٦٠، سيرة بنى هلال ص٥).

وإذا كانت دعوة الصالحين مستجابة فإن دعوة المحتاج كثيراً ما تستجاب، وقد يكون هذا المحتاج أباً فقد كان يزدجرد ملكاً عظيم الشأن من ملوك بنى ساسان ، تولى مقاليد الحكم وهو فى الخامسة والعشرين، وبقى فى الملك إحدى وعشرين سنة حتى بدت عليه إمارات الكبر، وبدت فى جسمه علامات الكهولة، فازدادت حاجته إلى ابن يرثه، ويرث ملكه، فلقد رزق بعدة أولاد، كانوا يموتون الواحد بعد الآخر، فكان يقضى أوقاته حزينا مغموما تزداد به الحسرة، كلما قرب من الشيخوخة، وفى ذات يوم انفرد فى خلوة وصلى، وبعد الصلاة رفع يديه إلى قاضى الحاجات، ودعاه : «إلهى وربى ومعبودى ارحمنى، وفرج كُربتى، ولاتغلق باب رحمتك عن أسرة بنى ساسان، وارزقنى الولد الوارث للملك الذى وهبته لهم. إلهى إنى أتضرع إليك وأسألك من خزائن جودك يا غنى يا كريم أن لا تحرمنى من خلف يرثنى وتزول به آلام قلبى وتنفرج كربتى فأنت السميع المجيب».

وبعد أن انتهى من صلاته، أتى زوجته وقلبه معتقد بأن الله يفرج كربته، ويجيب دعوته، ويتقبل صلاته، وكأنما كانت أبواب السماء مفتوحة، فقد سمع الله دعاءه وأجاب نداءه، فلم تمض عدة أيام حتى ظهر الحمل على زوجته» (قصة بهرام شاه ص ١) لتتحقق النبوءة في وجود الطفل الوارث لملك آل ساسان.

وإذا كانت دعوة الأب قد استجيبت فإن دعوة الأم المحتاجة كثيرا ما تستجاب. ولقد أفرد لدعوة خضرة المحتاجة للابن مكان هام في روايات سيرة بني هلال، فقد كانت دعوتها نبوءة تخص ابنها أبا زيد فهو ابن «التمنى» كما تسميه السيرة.

تجمع السير المروية عن أبي زيد في فصلها الخاص بمولده أن أمه بعد زواجها بأبيه أنجبت بنتا أسمتها شيحة ثم توقفت مدة طويلة عن الحمل.

وتروى سيرة بني هلال المطبوعة أن خضرة حملت وتمنت «أن يرزقها الله ولداً ذكراً. وخرجوا مرة إلى بستان فرأت غرابا أسود يطرد الغربان ويقهرهم ويفتك بهم فقالت: إلهي، أسألك أن ترزقني ولداً ذكراً ولو كان أسود اللون لعله ينشأ يغلب الفرسان ويقهرهم مثل هذا الغراب».

(سيرة بني هلال. ص ٢٦)

وتحدد رواية عبد الظاهر مدة التوقف عن الحمل بأحد عشر عاما : «جابت منه شيحة . ولما جابت منه شيحة وقفت حداشر عام يعنى حداشر سنة» .

وتتفق رواية عوض الله عبد الجليل مع هذه الرواية فى تحديد مدة توقفها عن الحمل بعد مولد شيحة :

وضعت وجابت شيحة وزاد الهنا
تقعد مع رزق فى حظ ودندنة
من بعدها قعدت حداشر سنة
متعوقة والوعد رايد بيه الإله

ويروى جابر أبو حسين أنها مكثت فى ديوانه شهرين قبل أن تحمل لترزق منه ببنت أسماها شيحة :

قعدت فى ديوان الأمير شهرين
جميلة ونعم الوجاهة
ليها الأصيلة أصل عالى وشهرين
ربى المهيمن عطاها
مصحوبة فى عالى البنية
على الكتف محلى الوشيحة
رزق البطل ببنيه
مع الفرح وسماها شيحة

حمد رزق ربه على هذا العطاء منتظرا أن يرزقه الله بابن بعدها ، فالأنثى وراءها يأتى الأولاد . وأخذ ينتظر ، وطال انتظاره عشر سنوات ، لم تأت فيها خضرة ببنت أو ولد فهذه حكمة الله :

لما تمت عشر سنين
ماوضعتش أولاد تانى
لا بنات ولا بنين
هذا حكمه اللى نشانى

ولم تحدد رواية عبد السلام حامد المدة التى توقفت فيها ، وإنما أطلقتها فقد ذكرت أنها توقفت «أيام عديدة» .

ولا تذكر رواية عبد الرحمن قيقة المدة وإنما تتركها دون تحديد . ويفهم من لغة الرواية أنها مكثت مدة ليست بالقصيرة . إذ تصفها الرواية بأنها عقرت ، ولا توصف المرأة بأنها عاقر إلا إذا مكثت مدة طويلة دون حمل .

وتصف الروايات الشفهية حالة رزق الهلالى ، فقد كان حزينا أسيان من الحرمان الذى كتب عليه ، وتذكر رواية عبد السلام حامد هذا الأسى من خلال تصوير رزق فى حالة من الغيرة وهو يرى رجال هلال يلعبون البرجاس مع أولادهم وهو بلا ولد بينهم . غضب رزق ولكنه سلم أمره لله : «فعاش أيام

عديدة ماجبتلهوش فتوان. رزق الهلالى بياجى من الصيد والقنص لقى فتيان العرب بيلعبوا البرجاس. ياما اضرب بالغضايب وقال رب عالم بحالى».

وتذكر رواية الحاج عبد الظاهر أن رجال بنى هلال طلبوا منه أن يطلقها، فقد كبر عليهم أن يكون زعيمهم بلا خليفة: «إزاى مرة الزعيم متخلفش وزعيم بنى هلال ومتخلفش أولاد.. لا طلقها.. طلقها». ورزق يرفض أن يستمع لكلامهم.

وتذكر رواية عوض الله عبد الجليل أن رزق الهلالى طلب فرسا ليركبه فوجد أمراء بنى هلال وشجعانهم مع أولادهم كأنهم سباع أو نمور يلعبون فى وسيع الفلاة والبطاح، والسعادة بادية على وجوه الآباء لمرأى الأبناء، نظر إليهم رزق فتعذب، ترك جماعته وعاد إلى بيته:

طلب ركوبة رزق الهلالى الأمير
يلقى الأمارة والقرومة السماة
يلقى الأمارة بولادهم أوكبوا
بالخير والعز والهنا أطربوا
ولادهم فوق الفراش يلعبوا
زى السبوعة فى وسيع الفلاه
زى النمورة فى وسيع البطاح

أبـواتـهـم زادوا الـهـنـا والإنـشـــراح
لما نظرهم (رزق الهلالى) ازدادت بيه الجراح
عــاود يكـب الـدمع جــوا حــمــاه

وقفت خضـرة متـألمة وهى تراه قادماً إليـهـا حزيناً، وعندما سـألتـه عن سـبب بكـائه عـبـر لهـا عن ألمه حـين رأى الفـرسـان يلعبـون مع أبنائهم. أما هو فقد رأى نفسـه وحيدا بـينهم فلا ابن يلعب معه .

قالت له قل لى أصل البكا ليه يا حبيب
يا رزق تبكى ليــه البكـا إيش نبــاه
يارزق تبكى ليــه يا كـبــيـــر المقـام
تبكى ليــه يا هلالى وليك دمع ســال
قـال لهـا ياخـضـرة حـصـل لى كـلام
مـا قـرم فـارس إلا ابنه مـعـاه ع الفـراش
بصـيـت لقـيـت نفـسى بنيـتـهم بلاش

وإذا كـان رزق يتـعـذب لأنه لـم ينجب ابنا فـإن خـضـرة قـد تعذبت كـثيـراً له ولنفسـهـا . وتذكـر رواية عـبـد السلام حـامد تعليـقـاً على مـوقـفـهـا من حزن زوجـهـا بأنهـا «كـانت زعـلانة بأحوال»، وتفصل رواية الحاج عبد الظاهر بأن بنى هلال أخذوا يعايرونها بأنها عاقر :

«وبعدين بقوا يعايروهم . . وكل ما تطلع مع
حـريم الهـلايل يعـايروها . . يا عـاقـرة . .
يـامش عــــارفــــه إيه ؟ من الكلام ده »

وتذكر رواية جابر أبو حسين أن رزقاً كان يملك مالاً كثيراً من الخيول والجمال فكان قلبه يعتصر لعدم وجود أولاد له يرثونه من بعده فأخذ يبكى من هذا الحرمان حتى جرح فؤاده بكاء .

لقى المال شـــمــــال ويمـــين
ياخـــيـــول ويا جـــمـــال
قـال : يامـال بعـدى يورثك مـين
آه يا عــــدم العــــيـــال
سـقـانى البـين كـاس دايب خليـفـه
البـكـا جــــرح الفـــؤاد
عـلى عـــدم الخـلـيـــفــه

لقد شعر بالحزن ، وإحساسه بأن العرب تعايره لعدم إنجابه فعاد إلى زوجته باكياً ، وعندما سألته عن سبب بكائه أخبرها بأنها سبب بلائه ؛ فقد أتى بها لتكون قرة عينه . لقد نسى رزق النداء الذى سمعه يخبره بأنه سينجب منها أبناء ، فتعجل بالغضب حتى أنه فكر فى طلاقها ، غير أنها لم تهن عليه .

قـال لهـا : سـبب بلايا مـا هو إنتى
شـاورت قلبى لطلاقك مـا هو إنتى
خليـــتى العـــرب عـــايرونى

لقـد كـان أمله فى العـشر سنوات التى مـضت على مـيلاد شيحة أن يكون له من الأولاد ما يعجز عن عدهم، فعض على نابه وسنه ألماً وحزناً

كـــان أملى فى العـــشـــر سنـين
مــــاعـــــرفش عــــدد ولادى
مـــــاتحكـى فـى ديـه ولادى

وتذكر رواية عوض الله عبد الجليل أن دموع خضرة كانت تنسال من عينيها حزناً على أحاسيس رزق المتألمة للحرمان على الولد، فرزق لم يفكر فى طلاقها، كما فكر فى طلاقها فى رواية جابر أبو حسين فحزنه، أدى بها إلى أن تفقد عقلها وتغيب عن صوابها حزناً لحزنه.

نزلت دمـوع خـضـرة تغنى طشـاش
مـن هـرج رزق اللـى حـــــداهـا تـراه
من هـرج رزق اللى طرى هذا الجـــواب
كـان عند خـضره عـقل فى الراس وغـاب

أما فى رواية جابر أبو حسين فهى قد واجهت حزنه بحوار

عقلى، فهو إذا كان غاضبا عليها لأنها لم تنجب أطفالاً فإنه يفكر فى طلاقها، وهى ترد عليه بأن كلامه جميل، وفى صلب الموضوع، ولكنها ليست المسئولة عن ذلك فلو أنه يعرف أن هناك غيطا تزرع فيه العيال لذهبت بنفسها لتقطف له بيديها منه تقاوى.

يا حبيبى كلامك حلو وفى الموضوع
إنما استمع وخليك معايا
عارف أنهى غيط فيه عيال مزروع ؟
أنا أروح أقطف لك تقاوى بيديا

وتستمر فى سؤاله إن كان يعرف سوقاً تباع فيه الأطفال لتذهب وتشترى منه طفلا، ثم تحذره من أن موقفه هذا يعاند به الله، فإن كلامه هذا قد جرح فؤادها، فتعود لتسأله متعجبة إن كان يعرف مكاناً لتحضر منه بذوراً لتثمر أطفالا .

أنهى سوق بيبيع أولاد
أوعى مع ربك تقاوى
كلامك ده جرح الفؤاد
أى مطرح أجيب التقاوى؟

وفى رواية عوض الله عبد الجليل عبرت عن أزمتها لشمة بنت الحسب سيد النسب حين زارتها فوجدتها متألمة

فاستغربت شمة وتعجبت من عذابها وسألتها عن سبب بكائها.

إلا وأتت شمة بنت الحسب تجر الثياب
بخدود يحاكوا الورد مسوا الندى
دخلت وتلقى خضرة متنكدة
قال لها يا خضرة يا بنت عمى مالك كده
لاضاع لكم ضايع ولاحد تاه
لاضاع لكم ضايع من الوطن عام
ليه بتبكى ياخضرة وليكى دمع سال

أخبرت خضرة شمة عن سبب ألمها، فإنها تحب زوجها ويمزق صميم قلبها بكاؤه، ويؤلمها أن يصبح مكسور الخاطر أمام رجال بنى هلال..

قالت لها ياشمه حصل لى كلام
مزق صميم قلبى ودوب حشاه
....
....
على كسر خاطر رزق طول السنين
....
....

عـــــاود يقـــــول آه م الدهـر آه
عـــــاود يقـــــول ياهل ترى ربنا
رايد ليــــه بقطع الولد كـــام سنه
لما ســــمــــعـــتــــه زاد بكايا أنا

وليس هذا هو كل ألمها، فهى تبكى أيضا لنفسها، إنها تريد ابناً، وتبكى لهذا الحرمان فقد أذلها عدم إنجابها طفلا، حتى أن دموعها خرجت ذليلة لا تتوقف. بللت خدها وسالت على فراشها وإنها لتشعر بأن الجبل لو شكت إليه لمال من مكانه حزناً، ولو شكت للبحر ما بها من ألم لحزن لها، وأوقف ماءه تعاطفاً معها.

بوجـــدى ياشـــمـــة ودمـــعى ذليل
دمعى هطل، ع الفـراش منى يسـيل
إذا اشـتكيت للجبل، لاجلى يميل
إذا اشـتكيت للبحـر ، يوقف بماه
يحـزن عـشـانى ودمـعى صـدود
دمعى هطل ع الفـراش، بل الخدود

وتشترك رواية جابر أبو حسين مع رواية عوض الله عبد الجليل فى أنها شكت ما حدث لها لشمه، وإذا كانت فى رواية عوض الله قد جاءتها شمة فإنها فى رواية جابر أبو حسين تذكر

أن شمه قد سمعتها تبكى فقد كانتا متجاورتين فى السكن :

بتبكى ليها دمع سارحان
العايقه فى صباها
سمعتها شمه مرات سرحان
كان السكن فى الوجاهة

كان واضحا أنها مرهقة متعبة عاجزة عن صنع شيء فقد سألتها شمة عن سر بكائها، ما أبكاك يا نور العين ؟ وسألتها أن تشرح لها قصتها فذكرت لها كيف أن رزقا ضايقها وأنه يعايرها بالعيال، وهى تسأل ماذا تصنع لحكم ربها؟ فهى لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً فهى تسأل لتنفى أنها تستطيع أن تخلق أولاداً بيديها :

قالت لها : رزق يا شمة
بهدلنى وشحطط نيايا
بيعايرنى بالعيال
أعمل إيه أنا لحكم سيدى
أنا ببص يمين وشمال
يعنى أخلق عيال بإيدى ؟

وتذكر رواية الحاج عبد الظاهر أنها ذهبت إلى (العد) وتعنى عين ماء تشرب منها القبيلة، وهناك وجدت طيراً أبيض

وآخر أخضر فتمنت كل امرأة أن تأتى بغلام يشبه الطائر الذى تحب، أما هى فلم تجد طائراً يعجبها لتتمناه فسكتت حتى جاء طائر أسود فاحم السواد أخذ يضرب الطيور ويسيل دماءها، فتمنت ابناً مثل هذا الطائر. وأخذت تدعو الله من أعماقها أن يهبها ابنا مثله يفوق جميع الطيور، وكل من يضربه يسيل دماه:

«لقيوا طير أبيض وطير أخضر. واللى اتمنت
على طير أخضر وهى تبص
مالقيتش لها حجة اسمها منى.. وبعدين
جه طير أسود غطيس ... يضرب
فى الطير ده الأخضر ... كل اللى ينكشه
يسيل دماه.. هى توجهت للكريم وقالت: يارب
تسمع لى كلام.. ادينى وليد أسود غطيس..
وكل اللى ينكشه يسيل دماه

وتذكر رواية عبد السلام أن خضرة خرجت ذات يوم إلى نهر العرايب وكان الطير نازلاً متعدد الألوان. كل امرأة تمنت على طير من الطيور، وخضرة صامتة حتى جاء طير أسود شتت جميع الطيور تشتيتاً، وهنا أخذت تدعو ربها:

وقالت يارب ياأرباب... ادينى

طيـر ومـحـلاه . . . وكل مـن يضـربه

يسيل دماه . . . وهو السبب والحكاية

وتذكر رواية عوض الله أن شمة بعد أن استمعت لأحزان خضرة حاولت أن تخفف عنها بأن الله كريم جواد ، ومن ترك شيئا يتعود على العيش دونه ، وأن عليها أن تسأل الله ، فإن من يسأل الله يغنم لأن وراءه فألا بقبول الدعوة :

شمة تقول ربى كريم يعطف يجود

اللى بيترك شى بيعيش بلاه (تكرر)

اللى بيطلب شى من الله ينول

لأنه بيتفول بكتر القبول

وسألت شمة خضرة أن تترك أثقال همومها وأن تذهب معها إلى النهر لتدعو الله هناك ؛ فالماء طاهر وقد تستجاب الدعوة عنده . ولم تذهب خضرة مع شمة بمفردها وإنما ذهبت مع تسعين صبية من صبايا هلال ، وسرن مع خضرة ، وكأنهن سعاة لها وهن يتجهن نحو الماء .

قالت لها قومى بنا واتركى الحمول

يا خضرة نروح للنهر وننظر صفاه

يا خضرة نروح للنهر يا أم الدلال

نشوف لك ميه شبيه الزلال

ولمت تسعين صبية من صباية هلال

مشوا فى طول خضرة شبيه السعاه

مشوا فى طول خضره وأتواع النهور

وعندما وصلن إلى النهر كان حواليه طيور بينها طائر شديد السواد ولكن فى لونه جميع الصفات :

لقيوا زلال سايح وحوله طيور

لكن فيهم طير سواده عكور

شتت جميع الطير وشال من صراه

شتت جميع الطير وخلاه شتات

أسمر فى لونه جميع الصفات

أخذت شمة حالة وجدانية وأصبحت كمن يقود جوقة فى صلاة، فطلبت من الفتيات أن يدعين المولى الرازق الذى لا يراه أحد، رازق العباد العالم بكل صغيرة وكبيرة، حتى دب النمل وقطر الندى :

شمة تقول اطلبوا يا بنات

المولى يرزق العباد بحال المبتدى

ويعلم بدب النمل وقطر الندى

ولبست خضرة حالة استغراب فى جو اللحظة، وتبدى أنها لحظة كونية تستجاب فيها الدعوة الحارة الصادقة ، بحرارة

حاجتها وإيمانها بأن الله قادر على تحقيق أمنيتها ، وأن هذه لحظة الدعاء فتمنت على الله فى دعوتها أن يهبها ابنا مثل هذا الطير يملك تونس وأوديتها بحد حسامه حتى يقال إن خضرة أنجبت غلاماً فارساً كاملاً تاماً من الهلالى رزق بن نايل :

خضرة تقول ادينى غلام أسود كيف الطير ده
لملكه تونسى ووادى حماه
أملكه تونس بحد الحسام
من لجل يقولوا خضرة جابت غلام
من الهلالى ابن نايل رزق موافى الزمام

لقد احتوت اللحظة عقلها ، فأخذت تدعو ربها وتستعطفه أن يستمع إليها ويجيب دعاءها . وأخذت تذكر ما منح الله أنبياءه فهو الذى شفا أيوب . وطاب من بلاه ، ورفع إدريس إلى السماء ويسر دعاء يعقوب له ففتح من العما ، وحين دعا موسى ربه الكريم وقف بجواره وأنقذه من فرعون وأحرق جيشه :

يا من شفيت أيوب وطاب م البلا
يا من رفعت إدريس لأعلى سما
يامن دعاك يعقوب وفتح من العما
لما أتى فرعون وجيشه احترق

وضع عصايته فوق البحر المحيط افترق

هذا ما صنعه ربها الكريم الواحد الأحد الذى ليس له شريك ولا ولد فهو المولى الذى يعلم بجرى المياه . وما فى القفار، مسخر الريح والسحب والأمطار، ثم تدعوه فى استغراقها ثانية أن يمنحها المولود الذى تريد ، والذى يكيد أعداءهم، ويسقيهم المر مختلطاً بكأس الموت ، وتختم دعاءها بتنزيهها المولى العالم بحالها :

ربى كـريم مـا له شـريك ولا ولد

هو المولى بيعتلم بما فى الافتقار

يسخر الريح والسحب والمطار

أسألك يا مولاى بنور باهى الجمال

لأنى أجيب مولود يكيد العدا

أبو زيد : يزقى العوازل حنضل بكاس الردى

سبحانك يا مولاى تعلم بحال المبتدى

اعشق جمال المصطفى

محمد نصلى عليه

وفى رواية جابر أبو حسين طلبت شمة من خضرة أن تتوقف عن البكاء فإن الله إذا أراد أعطى :

قالت لها شمة ماتبكيش (تكرر)

يـا أصـــــــيـلـة لمـى غـطـاكـى

كـــــلام مـــــاانـوش تـبـكـيـش

إن راد ربـــــك عـــــطـــــاك

وسـألتـهـا أن تقـوم معـهـا ليـخـرجـا إلى الجنـاين بدل البكاء وفـيض الدمـوع ، فإنهـا تخـشى عليـهـا أن يصـيبـهـا جنون من التفكير :

تـورى يـا أصـــيـلـة انزلـى مـــعـــاى

تـورى يا خـــضـــره انـزلـى مـــعـــاى

نـتـــفـــســـحـــوا فـى الجنـاين

بـدال البـكـا وفـــيـض دمـــعـــاى

لـربمـا تـصـــــيـــــبـك جـنـايـن

استمعت خضرة لكلام شمة فخرجت معها على جملها وقد لبست أحلى ملابسها ، وازَّينت بالزمرد وتنقبت بلثام أدبها وعفتها ، فهى الشريفة زوجة الزعيم الهلالى :

شـــدوا لـهـــا عـلى جـــمـــالـهـــا

لابـســــــه زمــــــرد يـلالـى

لـثـام الأدب فـــوق جـــمـــالـهـــا

حـلـيـلـة الـزعـــــيـم الـهـــــلالـى

خرجت خضرة مع جاريتها سعيدة وبصحبتها ثلاثين صبية

من صبايا بنى هلال، ولا تقارن رواية جابر أبو حسين الفتيات بخضرة كما فعلت رواية عوض الله عبد الجليل ليرفع جمالها فوق جميع النسوة، وعلى العكس من ذلك صورت رواية جابر أبو حسين جمال الصبايا بأنهن يحاكين حور الجناين

ذهبـــوا لتنين مع النســـاوين
وصلوا وســـــيع الجنـاين
الصــبـــايا اللى طالعـــه ثلاثين
حلوين يحـــاكى حـــور الجنـاين

ابتعدت النسوة عن التجمع والمنازل حتى وصلن إلى البساتين فأخذن ينظرن إلى أشجار التين والعنب وإلى البركة وقد نزل عليها الطير :

وصلوا لغـــاية البـــســـاتين
وصلوا البنات للبـــســـاتين
غـــــادروا النجع والمنـازل
بصـــوا على الأعناب والتـــين
والطيـــر ع البـــركـــة نازل

كان الطير غريبا متعدد الألوان، شكله وهو يشرب من البركة عجيبا فنظرت إليها خضرة فوجدت فيها العجائب :

نازلة الطيـــر عـــجب ولْوَان

تشــرب وترغــد عــجــايب
بـصت عـلى كـل مــــا كــــان
فى الطيــر لقت العــجــايب

بدأ أن هذه لحظة غير عادية يختلط فيها الحلم بالواقع فى نبع ماء؛ مما ألهم جميع الفتيات أن الدعاء فيها مستجاب فعاش الجميع اللحظة بغمائميتها وشفافيتها وشعورهن بأن باب العرش مفتوح وأن الدعوة مستجابة وتحركت قلوب النسوة تنظر إلى الطيور، وقد بدت وكأنها أطفال المستقبل .

وقد نزل على البركة - أول ما نزل- طائر أبيض فنظر النسوة إلى خضرة لتتمناه فقد مال قلبهن إليه وألححن عليها أن تتمنى فإن أراد الله سيعطيها غلاماً مثله :

البـنـات مـنـه خــدوا البــــال
قــالوا لهــا يا مــحلى النظام
يا خــضــرة قلبنا للطيــر ده مــال
يا نسل الحــبــيب التــهــامى
تمــنـى يـا نــسـل الـنـبـى الـزيـن
يـا شـــريفـــة لمى غطاكى
يـا أصـــيــلة بـالحلى والـزين
إن راد ربــــك عـــطـــاك

ومع أن خضرة من شوقها لإنجاب ولد فقد رفضت أن تتمنى هذا الطائر الأبيض، وبإحساس المرأة الغريبة في بني هلال، والتي تريد لابنها أن يكون قوياً يرث زعامة والده، ويحميها من أي سوء، عللت لهذا الرفض، فالأبيض لا يحميها من فوق هجينها:

قالت يا بنات ماتلوموناش (تكرار)
أنا عقلي مني هجيني
على لابيض ما استمناش
بكره مايحمنيش فوق هجيني

ثم نزل طائر أحمر على البركة وبعده طير أخضر، وخضرة ترفض أن تتمناهما وقد أصابها التوتر والقلق فأخذت تذرف الدموع وتتلفت حواليها وقد ضاق بها المكان كأنما هو توتر انتظار لقادم:

وفضلوا الصبايا دى صابرين
خضره ليها دمع نازل
وتتلفت شمال ويمين
ضايقه عليها المنازل

وبينما هي في حيرتها نزل طائران أسودان أحدهما شديد السواد والثاني أقل منه سواداً ويزيد عنه جمالا، ما إن حطًا على

البركة حتى شتتا جميع الطيور، وبقيا فى البركة بمفردهما :

شـويه وآتوا جـوز طيـور (تتكرر)
فـيـهم العـجب يا حـبـيـبى
من وجـهـهم سـاطع النور
فـيـهم فـرد أسـمـر زبيـبى
والـثـانى جنبـه بـعكار
زايـد لـونـه عـنـه مـعـانى
لما حـطّ الـطـيـر وداك طـار
مـاخلوا على البـركـه تانى

بعد أن منع الطائران الأسودان جميع الطيور من ورود الماء طلبت شمة من خضرة ذات الشعر الطويل أن تتمنى فقد كان يبدو أن هذا آخر طير سيقدم إلى البركة، فلن يستطيع أحد الاقتراب منها بعد وصولهما. وفى نظر شمة أنه يكفى خضرة هذا الانتظار الطويل، هذا فضلا عن أن هذا الطير قد أعجب خضرة، إذ يظهر على وجهه النور وأن فيه كثيراً من الفوائد :

قـالت الـصـبـيـة مـرت سـرحـان
تمـنـى يـا نـسـل طـه نـبـيـنـا
ليك شـعـر ع الكتف سـار حـسن
الـصـبـر واخـداه نـبـيـنا

شـوف الطيـر نقـر الطيـور
ولـت مـافـاضلش واصل
بـاين علـى وجـهـه النور
فـيـه الفـوايد وحـاصل

تنظر خضرة ومازالت متوقفة عن أن تطلق أمنيتها ، وإذا بالطائر الأحمر يعود فجأة للبركة مرة ثانية فيضربه الأسمر بمنقاره فيصرعه والنسوة تنظر لفعله وتتعجب منه .

أما خضرة فقد وقفت مذهولة من فعله وهى تنظر إليه وتزغرد لفعاله وطلبت من الصبايا أن يستمعن إليها :

بصت عليـه الشـريفـة وراعت له
صـلاة النبى يا قـرة عـيـونى
انشـرح فـؤادها قـامت زغـرتت له
وقـالت : يا صبـايا جمله اسمعونى

وقد أخذتها النشوة ، نشوة اللحظة المستجابة وهى تعلن أنها تريده وتتغنى بسماره ، فحتى لو كان أشد سمرة مما تريد . أذاعت مخاوفها ، فإنها تخشى أن تلام ، وحتى لو لاموها ، فإنها تريده وعادت ثانية لتعبر عن مخاوفها من أمنيته وهى تدعو أهل الله أن يقفوا معها ، فقد قررت ألا تضع فى اعتبارها أى شىء مع خوفها أن تتهم فى شرفها ، إذا ما جاء أسود اللون ،

فهى تفوض أمرها إلى الله فما كتب فى علمه سبق علمنا :

يا سلام يا اسمر يللى الرب حلاك (تكرر)
فى جسمى البلا كلمونى
بالله لو اسمر قوى برضه أتمناك
وحتى إن لامونى يلومونى
أنا خايفه استمناك
يا أهل الطريقة انجدونى
لكن لا اعتبر ده ولا داك
والله لاخايفه ليتهمونى
لكن أمرى مفوض لربى
اللى انكتب طبعه سابق

وتمنت من الله أن يكون عطاؤه لها غلاماً صالحاً يعمر المنازل ، وأن يكون قلبه للعلم مشروحاً متديناً ، وكان باب العرش مفتوحا فاستجاب الله دعاءها :

طلبت الحرة من الله
العز والفخر نازل
يعطيه الغلام وراه
يعمر جميع المنازل
ويكون قلبه للعلم مشروح (تكرر)

وتختلف رواية عرب الشوا النيجيرية قليلاً فى أن هذا الطائر الذى تمنته لم يكن متميزاً عن غيره بالسواد وإنما كان نسراً قويا . طلبت أنده من بزلة أن تذهب إلى الماء لتغير ملابسها وكانت فى أيام الطهر فحملت كل واحدة منهما أوعيتها وذهبت إلى البحر ، وهناك وجدتا جثة فرس وقد تجمعت الطيور حولها تأكل لحمها ، ثم جاء نسر وطرد الطيور ومكث يأكل بمفرده ، فتمنت بزلة أن تأتى بغلام مثل هذا النسر . وجاء نسر آخر طرد النسر وحمل جثة الفرس ورفعها ثم حطها على الأرض ثلاث مرات .

ولما رأت أنده ذلك تمنت أن تأتى فى طهرها بغلام مثل هذا النسر . وتصور الرواية هذه اللحظة : « أنده شافت قالت لبزلة . يا بزلة أنا أريد فى طهرى هذا ألقى ولداً فحلاً منيعاً مثل النسر هذا أسميه أبو زيد » .

(النص ص ١ The stories of Abu Zaid)

وتذكر رواية الحاج عبد الظاهر أن دعوتها كانت مستجابة ، فقد كان باب القدر مفتوحاً ، فقبل الله دعاءها وواقعها رزق بعد ذلك مباشرة فحملت منه فى نفس الساعة :

«كان ربنا وباب القدر مفتوح قبل دعاها واقعها رزق بن نايل حبلت» .

وتذكر رواية جابر أبو حسين أن باب العرش كان مفتوحاً فاستجيب الدعاء :

كان يوم دى باب العرش مفتوح

استجاب الإله دعاها

وتذكر رواية عبد السلام حامد أن جميع النسوة حملن :

«وحملت كل النساوين الأربعين . كل واحدة جابت رجاله» .

أما رواية عوض الله عبد الجليل فقد فصلت الموقف في إيقاع سريع . فحالة الاستغراق التي لبستها عند النهر لم تتركها . لقد كان لها عقل ولكنها فقدته ، فقد تاه منها وسارت مأخوذة ، فذهبت إلى فراش مملكتها فأتاها رزق بعد العشاء وقد لبست من ملابسها الحرير والديباج . . وعندما رآها رزق الهلالي طلب منها الوصل ، ولما كان دعاؤها قد استجيب فقد سعدت وأرسل لها رب العرش بالطفل الذي أرادته مكيداً للأعداء :

«خضرة الشريفة كان عقلها زل تاه

راحت على فراش المملكة مطرشا

جاه الهلالي رزق من بعد العشا

لبست حرير ديباج وجلست معاه

لبست حرير ديباج كداه لبسها

رزق الهلالي طلب الوصل من يمها

سـعـدت ورب العـرش أرسل لهـا
بـالطفل اللى بـان وكـاد العـدا

ولا تدخل رواية عبد الرحمن قيقة تفصيلا لهذا الموقف وتوجزه بأن الله استجاب دعاءها: «بالفعل رزقها بوليد أسود غطيس» (ص ٥٨).

وتذكر رواية عرب الشوا أنهن مشين إلى بيوتهن «وكل واحدة حملت فى طهرها» (ص ١).

وإذا كانت الأم المحتاجة قد دعت ربها فكانت دعوتها نبوءة تخص ابنها، فإن دعوة بيبرس المظلوم المحتاج استجيبت فكانت دعوته نبوءة تنبئ بمصيره.

لقد لبث محمود عند السيدة الدمشقية حسنة أربعين يوماً بعد رؤيته لأقطاب الله، برئ فيها تماماً. وقامت المرأة بتمريضه بإخلاص طوال هذه المدة، فهى قد عاهدته أن تكون له أماً. واجه محمود بعد ذلك مصاعب جمة؛ منها أن الأمير عيسى الناصر شرف الدين حاكم دمشق قد طلبه لقتله سعيد الراكبدار لفسقه وفجوره، فأمر الأمير بقطع رأسه . فأخذ يدعو الله أن يخلصه، وأن يرد عنه كيد الأعداء، فما أتم دعاءه حتى دخل على بن الوراقة من باب ديوان الشام، فإنه كان فى طريقه إلى مصر بعد أن ترك محموداً بالمارستان وإذا به يرى فى منامه ولذيذ أحلامه

الملك الصالح يقول له : «وعزة الربوبية، إن لم تأت بمملوكى وتعود إلى أرض الشام لأجله وتنجيه مما هو فيه لم تدخل بلدى». فانتبه مرعوباً من نومه، وترك المماليك مع أتباعه وعاد إلى الشام وذهب إلى المارستان وسأل عنه فأخبروه بخبره فذهب من فوره إلى الديوان وأبلغ عيسى الناصر بأن هذا الغلام هو مملوك الملك الصالح أيوب وأنه لا يحق له قتله، فى هذه اللحظة دخل نقيب الأشراف وبصحبته أهل الإحسان فوقفوا فى صف بيبرس فهو حامى العرض وقاتل الشرير. وقطع نقيب الأشراف بالخنجر قيود محمود، وانصرف الجمع، وذهب مع ابن الوراقة إلى والدة بيبرس السيدة حسنة وباتا عندها، وقد اتفقا أن يسافرا فى الصباح إلى مصر، فودع والدته وخرجا فى طريقهما إليها، فالتقيا برجل يقال له على بن القواسى وكان له مائة دينار عند ابن الوراقة فأصر على أن يأخذ محموداً رهنا لهذا الدين. كان ابن القواسى قاسياً لم ينفع شىء مع إصراره ففكر أن يعود إلى أم محمود أو إلى نقيب الأشراف ليأخذ منه المال، وبينما هو عازم على ذلك إذ أخذه النوم فرأى الملك الصالح قدامه يقول : «يا على دعه هنا على سبيل الرهن فإن له عيشا يأكله، وأمراً يفعله». فاستيقظ ابن الوراقة متعجباً غاية العجب، وترك محموداً امتثالا لأمر السلطان، وعاد طالباً

مصر . وبقى محمود يعانى من القواس ومن زوجته وسيلة . لقد كانت أشقى أهل الأرض فقامت بتعذيبه . وفى السادس والعشرين من رمضان ادعى ابنها الذى سقط على أم رأسه وهو يلعب بأن محموداً قد أسال دمه فتوعدته وسيلة بالعذاب فهرب منها طالباً الخلوات إلى أن خرج من الشام إلى جبان المسلمين وإذا به يرى قبراً جديداً مفتوحاً وحادث نفسه بأنه إذا جن الظلام وأقبل الليل وغلب على عينه المنام نزل إلى هذا المكان ونام فيه ، وبينما يفكر فى أمره أقبل عليه ثلاثة رجال يطلبون الهرب إلى أن أقبلوا عليه ، وسلموا ، فرد عليهم السلام وعرف قصتهم ، فالأول هو طيور عيسى الناصر المسئول عن طيوره وعلفها . فر منه طائر عزيز فخاف أن يقتله فهرب من وجهه ، وأما الثانى فهو هجانه وقد هرب منه هجين فخاف من الناصر فهرب ، وأما الثالث فهو سائس الناصر ، وقد هرب منه حصان فهرب إلى المقبرة ، فطلب منهم محمود أن يقيموا معه حتى يأتى الفرج القريب من الملك المجيب ، ولم يكن أمامهم إلا الاستسلام لما يقول . وأخذوا يتحادثون حتى ولى النهار ، وأقبل الليل بالاعتكار ، وقد دام الديموم ، وظهرت النجوم ، فقد كانت ليلة مباركة ليلة السابع والعشرين من رمضان ، والمكان مبارك أيضاً .

نزل الرجال الثلاثة إلى أسفل التربة وناموا ومحمود لا ينام، ولا ورد عليه منام حتى مضى من الليل ثلثاه بينما محمود متفكر فى أمره، وإذ بأبواب السماء تفتح بقدرة الله وقدره وظهرت من السماء من قبله طاقة قدر القبة وهى صافية البياض. رأى كل شيء على الأرض ساجداً، ولا أحد منتبه من الأنام، لا وحش، ولا غلام، ولا رجل، ولا صبيان، ولا ديك يصيح، ولا كلب ينبح. ليس هناك إلا الدنيا ساجدة وأشجارها راقدة. كان ذلك يقيناً لمحمود فى رؤياه، فقد استجيبت دعوة السيد إبراهيم الدسوقى وظهرت له ليلة القدر ليزداد طمأنينة بمستقبله، وينطق بنفسه النبوءة التى تحدد هذا المستقبل فى ليلة هى خير من ألف شهر تتنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ليلة ذكرها الله بأنها سلام حتى مطلع الفجر (م : القدر ٩٧).

وتيقن أن هذه العلامات لها، وليست لغيرها، فنهض على قدميه، وسأل الله الغفران، ودعا رب الأنام :

« اللهم بحرمة هذه الليلة عندك أن تجعلنى ملكاً وسلطاناً على مصر والشام، وسائر بلاد الإسلام، وأن ترزقنى النصر على الأعداء اللئام، بحق المصطفى المظلل بالغمام، أن تجعل لى كلمة تسمع وحرمة ترفع .

اللهم اجعل لى من أمرى فرجاً، ومخرجاً. وأن ترزقنى من الشدائد النجا. اللهم اجعل لى بين أكتافى عزم أربعين ولياً من الأولياء العظام. اللهم استجب دعواتى إنك على كل شىء قدير وبدعائى خبير، وبرحمتك يا نعم المولى ونعم النصير».

ولما انتهى محمود من دعائه وتضرعه إلى مولاه أيقظ زملاءه الثلاثة من نومهم حتى يدعوا الله فى هذه الليلة المباركة، كان يريد لهم أن يشاركوه هذه اللحظة النادرة فى حياته، ففى رأيه أن إيمان المرء لا يكتمل حتى يحب لأخيه ما يجب لنفسه. (ص ١٠٧ - ١١٥).

ولما أصبح الصباح عاد محمود إلى القواسى وزوجته وسيلة، فقد كان يعرف الآن مصيره وعلى يقين من أن قدره سيسير به كما أعلنته كلماته، نبوءة بحكم مصر. ولن يفر الآن من وسيلة أو زوجها أو غيره، فإنه سائر عن يقين نحو تحقيق النبوءة فى أى طريق يتجه، فإن الذى أظهر له طاقة القدر فى تلك الليلة هو الذى سينفذ هذه الدعوة.

وكما كانت الدعوة إلهاماً عن المستقبل ينطق به الداعى فإن التنجيم أيضاً قد لعب دوراً فى تبليغ النبوءة فى السير الشعبية.

التنجيم

أعطى الإنسان دوراً مهماً فى حياته للنجوم والكواكب فهى تقوم بدور فى هدايته لمكانه وتحديد الوقت. ومن هنا ظهر التنجيم وهو: النظر فى النجوم لحساب مواقيتها وسيرها وقد ربط الإنسان بين النجوم وحركتها وبين مظاهر الطبيعة على الأرض من رياح وأمطار وحر وبرد. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد وإنما ربط بين النجوم والكواكب وحركتها وبين مصير الإنسان. فلم يعد للنجم والكوكب عالمه ومحيطه وإنما ارتبط بعالم ومحيط الأرض

والإنسـان ، فربط بين حـركتـهـا فى أمـاكن معـينة ، وعـلاقتـهـا ببـعضـهـا البعض وبين الأحداث التى تحدث للإنسـان ، وجعلها تفسـيراً لما يواجه من سعادة وشقاء حتى الحياة والموت فسرت على ضوئها .

ولقد سُمى المتتبع لحركة النجوم والكواكب بالمنجم . واقترن فى بعض الحضارات بالدين وكان عمله جزءاً من عمل الكاهن .

وكـان الكاهن فى مـصـر القـديمـة وفي بابـل منجـمـاً وكـان التنجـيم يرتبط ارتبـاطاً وثيـقاً . ثم اسـتـقل المنجم بعمله ، فـقد يكون الكاهن منجـمـاً وقـد لا يكون ، وقـد يكون المنجم كـاهنـاً وقد لا يكون .

وكلما تعقد المجتمع فى تقدمه كلمـا ازدادت أهمـيـة المنجم وأصبح له وظيـفـة رسـمـيـة فى البـلاط الملكى ، وقد انـفـصلت العـلاقـة بيـن الكاهن والمنجم فى الأديان السـمـاوية ، اليـهـودية والمسـيحـيـة والإسـلام فأصبـحت هذه الوظيفة دنيـوية لا ترتبط بالدين الرسمى ولقد قرنها التراث الشعبى الإسلامى بالحكماء أى الفـلاسـفة ، فـهم المنجمـون . وأصـبـحت هذه العـمليـة ، أى التنجـيم دنيـوية . والقـائمـون بهـا ، أى المنجـمـون دنيـويين . وقد رفضهم الموقف الرسمى للدين .

ومع ذلك فقد كان فى بلاط الرومان المسيحى منجمون كما

كان فى بلاط الفرس منجمون أيضا ولم يشذ العباسيون عن ذلك على الرغم من أنهم يحكمون باسم الإسلام، ويرتبطون مع رسول الله ﷺ برباط الدم، ويعرفون أن ذلك هو ما أعطاهم الحق فى حكم المسلمين. ولقد ورد عن رسول الله ﷺ أحاديث كثيرة تنفر من التنجيم والمنجمين.

وهناك حادثة مشهورة فى التاريخ الإسلامى تؤكد وجودهم المعترف به فى المجتمع الإسلامى، وهى حادثة فتح عمورية فقد سُئل المنجمون عما إذا كان الوقت ملائماً ليغزو المعتصم عمُورية فنصحو له بعدم غزوها. وكان الحدث الكبير الذى قام به المعتصم هو الإقدام على فتح عمُورية على الرغم من تحذير المنجمين له .

وقد سجل هذه الحادثة أبو تمام فى قصيدته المشهورة عن فتح عمورية .

السيف أصدق أنباء من الكتب

فى حده الحد بين الجد واللعب

ومع ذلك كان درساً واضحاً على عدم صدق نبوءات المنجمين إلا أن التنجيم كان له دور واضح فى بعض السير الشعبية وبالذات سيرة فيروز شاه وسيرة بهرام شاه وحمزة البهلوان، أى السير التى ارتبطت بالحضارة الفارسية.

ولقد أعلن النبوءة الخاصة بمصير البطل فيروز شاه ابن الملك ضاراب وزير أبيه طيطلوس. كان الملك ضاراب قد بلغ الخامسة والعشرين من عمره وقد مكث على عرش الملك ثلاث عشرة سنة دون أن يتزوج فقد كان مُعرضا عن الزواج. فتقدم إليه الوزراء برجاء أن يتزوج، فإن المملكة لا تحيا إلا بالعدل، والعدل لا يقوم إلا بالحكمة والتدبير، والحكمة والتدبير لا يكونان إلا فى أفراد الناس ولا سيما فى الملوك، وأن النسل ضرورى لهم لحفظ المملكة من الانقسام. ولما لم يكن هناك أفراد ذكور من عائلة الملك ضاراب فإنه إذا لم يتزوج سيخلف للمملكة خراباً، وللرعية قلاقل وحروباً.

قبل الملك رجاءهم فتزوج واحتفى بزواجه خمسة عشر يوماً. وفرح الجميع الكبير والصغير فى مملكته. ولما انتهى زمان العرس وآن أوان اجتماع الملك ضاراب بعروسه دخل عليه وزيره طيطلوس. وكان يونانى الأصل خبيراً عالماً بأصول الدنيا وتواريخ العالم وفيلسوفاً يعرف بضرب الرمل والتنجيم ورصد الأفلاك. طلب طيطلوس من الملك أن يمهل نفسه فلا يدخل على عروسه حتى يرصد له النجم فمتى يرى اليوم موافقا لدخوله عليها فإنه يخبره به؛ لأنه يعلم أنه سيخرج من صلبه بطل تبطل عند ذكره شجاعة كل شجاع وتفخر به بلاد فارس

على كل من تقدمها ، ولا ينتج الدهر مثله فيما بعد فامتثل الملك وصبر أياما . وفى الليلة التى قاربت فيها الزهرة المشترى طلب من الملك أن يدخل على زوجته فإن هذه ليلة سعيدة لا يظن أن يتوفق مثلها قط ، ففعل . وأتى زوجته تلك الليلة ، فشهد منها لطفا وأدبا نادرى المثال وجنى من ورد حسنها زهور الكمال ، وبات ليلته على بساط الهنا والانشراح ، وتحمل الملكة فى ليلتها لتلد الابن البطل . وفى اليوم السابع من ميلاده يعلن طيطلوس النبوءة الخاصة به إلى والده فهو يوصيه بأن يحافظ على تربية ابنه فإنه - سيكون له حديث يذكر جيلا بعد جيل نظراً لشجاعته - واتساع ملكه . إنما يخاف عليه من أمر واحد . قال الملك : وما هو ؟ قال إنه يغرم بحب فتاة فيلاقى لأجلها صعوبات كثيرة (قصة فيروز شاه ، جـ ١ ، ص ١٣) . ولم يأخذ الملك نبوءة وزيره مأخذ الجد ولم يكترث لها فقد كان من رأيه أن الحب لا يكون إلا عندما يبلغ أشده ويرى أنه إن كان حيا سيساعده على زواجه ولا يدعه يتحرق على جمر الهوى (جـ١ ص ٣٠٩ - ٣١٣)

وكما أعلن الوزير المنجم النبوءة الخاصة بابن الملك ضاراب فقد أعلن أيضا النبوءة بساسان حفيد ابنه فيروز شاه فقد حضر الحكيم طيطلوس ليتنبأ للغلام بأنه سيكون رفيع القدر عالى

الشأن ويكون له حظ عظيم وتوفيق عجيب (م ٤ جـ ٤١ ص ٣٣٤).

وسارت الأحداث لتحقق نبوءة طيطلوس في فيروز شاه. أما حفيده ساسان فإن السيرة قد انتهت بميلاده بما يوحي أن النبوءة ستحقق.

وما حدث لفيروز شاه حدث لبهرام شاه فقد قرئ نجمه لمعرفة مستقبله. لم يقرأه منجم واحد وإنما قام بقراءته أكثر من منجم وساحر. فسيرة بهرام شاه تذكر أنه بعد مولده: جاء المنجمون والسحرة، وأخذوا الولد على أيديهم ثم نظروا في طالعه وراجعوا كتبهم وبحثوا في الأحكام، وفي هذا المعنى. وحسبوا الأبراج والدرج والمنازل، ورسموا الأشكال والزابرجات. ودققوا البحث والنظرة، فقالوا للملك: اعلم يا سيدنا أن هذا الولد سيكون سعيد الطالع جداً فقد تبين لنا أنه يملك السبعة الأقاليم والممالك التي لم يملكها غيره من ملوك ساسان فتضاعف فرح الملك وغمر المنجمين بالإنعام والإكرام ودعى اسم الطفل بهرام وأخذ ينظر في تربيته والاعتناء به» (قصة بهرام شاه ص ٥).

وقد سارت السيرة في اتجاه نبوءة المنجمين، وكما أدى التنجيم دوراً في إعلان النبوءة بمستقبل البطل فقد قامت قراءة الرمل بنفس الدور في حياة بعض أبطال السيرة.

قراءة الرمل

وإذا كان التنجيم هو قراءة النجوم فى المجتمعات الزراعية القديمة المتقدمة فإن المجتمعات الأولية الصحراوية قد تأملت فى الأرض وفى الرمل بالذات وأصبحت قراءته عملية معقدة أوجدتها البيئة الصحراوية التى لا تحسن القراءة والكتابة. فلم يعرف عن بيئة أنها عرفت التنجيم وكانت أمية، إذ لابد من قدر من المعرفة فى محيط الإنسان. تأمل السماء يحتاج إلى قدر كبير من تأمل الأرض والمرحلة الأولى هى قراءة تخت الرمل لتأتى بعدها المرحلة الثانية وهى قراءة النجوم. وإذ كان قارئ النجم

يسمى منجما فان قارئ تخت الرمل يسمى رمالا .

وهناك كتب خاصة منها المخطوط والمطبوع تتناول قراءة البخت وكيفية استخدام الرمل . ومع أن هذه الكتب صعبة القراءة تحتاج إلى دربة وممارسة وملقن يعلم هذه الكيفية إلا أن قراءة تخت الرمل أقل صعوبة بكثير من قراءة النجم ، فتكاد تكون قراءة تخت الرمل عملية أولية ترتبط بالأمية بينما قراءة النجم عملية معقدة ترتبط بالأمم الكاتبة العالية القدر من المعرفة . ومع أن قراءة تخت الرمل ترتبط بالحروف الأبجدية فإن قارئ تخت الرمل ليس فى حاجة إلى معرفة القراءة والكتابة معرفة جيدة ، لذا فإن تردد اسم قارئ تخت الرمل يكون فى السير المرتبطة بالصحراء أى بين الأبطال المرتبطين بالبداوة . فهى تذكر بقلة فى سيرة سيف بن ذى يزن ، وتذكر بكثرة فى سيرة المهلهل وتلعب دوراً أساسياً فى جميع الروايات المروية عن سيرة بنى هلال .

ولقد عرف الملك يزن والد سيف النبوءة الخاصة بابنه من تخت الرمل ، فإن هناك نبوءة معروفة وهى أن ملكا من ملوك التبابعة الكرام سيكون على يديه تنفيذ دعوة نوح عليه السلام ، وقد آمن الملك يزن بمحمد ﷺ قبل مولده بزمن . وذهب إلى مكة وكسا البيت الحرام ثم غادرها . ونصحه وزيره

يثرب ببناء مدينة تسمى باسمه. وبعد أن تم بناء المدينة خرج الملك يزن طالبا ديار الملك بعلبك. وبعد أن قتله نظر إلى قطعة أرض مكسوة بالخضرة، فأعجبه حسنها فمال على سرجه، واهتز من الطرب، وعول على أن يبنى عليها مدينة، وبعد أن بنيت المدينة حادث الملك وزيره فى رغبته أن تصير الحبشة له وتحت حكمه وأن يكون ملوكها فى قبضته، ويعطوه جميع الخراج. فأراد الوزير أن يضرب تخت الرمل وينظر ما يجرى من الأحوال فسمح له الملك فضرب تخت الرمل على اسم الملك وحسب ودقق وولد فى الأشكال، ونظر فى بيت الداخل والخارج فرأى أنه لن يملك الحبشة وإنما يملكها ولد من صلبه واسمه من اسمه يظهر دين الإسلام ويأمر الناس بعبادة الملك العلام ويكون جميع الحبشة غلمانا وخداما لأولاد سام بن نوح عليه السلام. وأشار يخبر الملك شعرا بما سيجرى وقد حدد فى بعض أبيات قصيدته النبوءة التى تخص ابنه سيف :

فيأتيك مولود ويملك أرضهم ويبقى على جميع البرية حاكما
على يده لا شك إنفاذ دعوة لنوح نبى الله حكما تقدما
وفى عصره تخريب بلدتكم ذه وأسوارها ترمى جميعا تهدما
وتعمر فى أيامه مصر كلها ويجرى بها النيل المبارك خادما
وإقليمها يبقى على الدهر عامرا ويسكنها عرب تصاحب أعجما

وقد تنبأ الرمل بمستقبل الزير سالم قبل أن يقتل أخوه كليب فإنه بعد قتل التبع حسان ثم هزيمة ابن عمه الأمير عمران القصير ومثل كليب له وكان الزير طفلا عمره عشر سنوات فى ذلك الوقت ومع ذلك كان مشغولا باللهو وشرب المدام. واجتمع بعد ذلك بأيام أبناء مرة فى خيامهم وضربوا تختا من الرمل ليروا ما يحل بهم وما يجرى عليهم ويصيبهم فبان لهم أن الأمير جساسا لابد أن يقتل الأمير كليباً ويظهر الزير ويأخذ بثأره ويقتل منهم كل أمير وجبار فاعتراهم القلق والكدر وأجمع رأيهم أن يوقفوا النبوءة ويتحدوها بقتل الزير قبل أن يكبر. وأنشد سلطان بن مرة ما كشفه الرمل :

على ما قال سلطان بن مرة ... مبين الضر فى يوم النزال
تبين عندنا جساس يقتل ... كليب بن ربيعة لا يبالى
ويأتى الزير بعده يا أماره ... يشتت شملنا بين الجبال
ويمحى ذكرنا من كل أرض ... ويفنينا ويسبى للعيال
هلموا نقتله ونبيد اسمه ... ويسلم من تصاريف الليالى

ولا ينجح آل مرة فى تحدى ما كشفه الرمل، وسارت الأحداث فى الطريق الذى ذكره الرمل.

الكتب القديمة

لعبت الكتب القديمة دورا فى تبليغ النبوءة الخاصة بالبطل وقد ذكرت الكتب القديمة ثلاثة أبطال، عنترة، وسيف بن ذى يزن، والظاهر بيبرس. وفى الاعتقاد أن هذه الكتب تدون علم الحكماء القدماء.

أما عنترة فإن الحديث عنه يبدأ بجعله قضاء الله المرسل لإذلال العرب قبل رسالة محمد ﷺ والحديث عنه لا يظهر أنه نبوءة سابقة لميلاده وإنما يذكر على أنه قدر كتب على العرب لأسباب خاصة بهم، فعنترة هو محقق الإرادة الإلهية وفعله نتيجة عبث

العرب وطغيانهم فوجود عنترة إنما هو وجود كونى يلعب دورا في حركة جماعة بأكملها ليساهم فى تغيير معتقد، والخبر عنه هو خبر كونى تروى السيرة أنه : «حدث المحدثون وأخبر المخبرون الذين نقلوا كلام العربان الأولين بما رددوا من حديث عربان الجاهلية الشجعان وعبادتهم للأصنام وانعطافهم على الأزلام والأوثان . وقد أضلهم وأغواهم الشيطان حتى ابتلاهم الله بالمذلة والحرمان ؛ لأنه لم يكن قصدهم من ذلك الزمان إلا أن يتفاضلوا على بعضهم البعض وكان كل منهم يريد أن يكون ما مثله أحد على وجه الأرض ويقهر شجعانهم بالطول والعرض . كانوا لا يخافون الله ولا يخشونه ولا يحترمونه (ولما) أراد الله سبحانه وتعالى هلاك أهل تجبرهم وتكبرهم أذلهم الله تعالى وقهرهم بأقل الأشياء عليه . وذلك بالعبد الموصوف بأنه حية تطبق الوادى، الذكى الفؤاد، الطيب الميلاد صاحب الوداد، عنترة بن شداد الذى كان في زمانه شرارة، وخرجت من زناد، فقمع الله به الجبابرة فى زمن الجاهلية حتى مهد الأرض قبل ظهور سيدنا محمد ﷺ (سيرة عنترة م ١ جـ ١ ص ٤، ٥) .

وإذا كان عنترة قد كتب عليه أن يذل العرب ليمهد للإسلام فقد كتب على سيف بن ذى يزن أن يحقق دعوة نوح عليه

السلام فى ابنه حسام بأن يسود الله وجهه ويجعل نسله خداما وعبيدا لذرية أخيه سام، كانت هذه النبوءة مكتوبة فى الكتب القديمة. وقد عرف هذه النبوءة ثلاثة من وزراء الملك سيف أرعد ملك الحبشة وعدو الملك يزن. كان أحد هؤلاء الوزراء الثلاثة مؤمن واسمه بحر قفقفان، قرأ كتب المتقدمين وعلم الأمم الماضين، فوجد فى الكتب العظيمة والملاحم القديمة، أنه يظهر فى آخر الزمان نبى قرشى يختم الله به الرسل والأنبياء الأول، فأسلم ذلك الوزير وكتم إسلامه ولم يبين لأحد ما هو فيه من إيمان من جميع الحبشة والسودان والأهل والجيران وكانوا فى ذلك الزمان يعبدون الكواكب من دون الملك الغالب وبالخصوص زُحل من دون الله عز وجل.

وكان اسم الوزير الثانى سقرديون النحيس واسم الثالث سقرديس. وكان هذا الوزير على علم بالنبوءة الخاصة بسيف بن ذى يزن ذكرها للملك سيف أرعد حين اجتمع بوزرائه يبلغهم نبأ نزول العرب أرضه وأنه عول على أن يغزوهم ويخرب ديارهم ويقتل كبارهم وصغارهم وينهب أموالهم وعيالهم، وهنا أخذ سقرديس ينصحه ألا يهترش بهم لا فى قتال ولا فى صدام ولا حرب ولا نزال ولا خصام. فهو يخاف إن اهترش بهم أن تنفذ فيهم دعوة نوح عليه السلام، فإنه دعاهم

للإيمان فخالفوه، فدعا عليهم فنزل من السماء مطر ونبع من الأرض ماء وقطر فأغرقهم جميعاً، كل من خالف من قومه، ونجا هو ومن اتبعه. ففي يوم من الأيام نام نومة القيلولة وأولاده سام وحام جلوس عنده فهب الهواء على نوح فانكشفت عورته لأجل بيان سره وقصته فتقدم سام فغطى عورة أبيه، أما حام فلما نظر عورة أبيه لم يستره وضحك عليه فانتبه نوح من منامه وما كان فيه من لذيذ أحلامه فوجد الولدين يتشاجران ويتخاصمان، وكان حام جالساً عند رجله وسام جالساً عند رأسه. ووجد حاماً يبتسم وساماً غاضبا، وحين سأل عن سبب خصامهما ذكر له سام ما وقع من أخيه حام وهو مغضب فدعا عليه وهو مجاب الدعوة وقال له : سود الله وجهك وجعل نسلك وذريتك خداماً وعبيداً لذرية أخيك سام ابن أمك وأبيك، وذكر سرقديون للملك سيف أرعد أنه يخاف أن تنفذ فيهم على يد هذا الملك الوارد عليهم هذه الدعوة. (انظر سيرة سيف ص ١٦ - ١٧). وقد حاولوا أن يمنعوا النبوءة من التحقيق فكانت محاولتهم هي سبب تحقيقها.

أما بيبرس فقد كتبت نبوءة في جفر الإمام ولم تذكر السيرة أى إمام من أئمة الشيعة. ولا يخرج هذا الإمام أن يكون أحد اثنين إما إمام الشيعة الأول على بن أبى طالب أو السادس رأس

مذهب الإمامية والإسماعيلية الإمام جعفر الصادق.

وقد ذكرت السيرة أن الفداوية أبناء إسماعيل بعد أن رأوا الملك الصالح فى منامهم يخبرهم ببيبرس أيقنوا أن مشاهدتهم هذه الليلة حق وإيقان وما هى بأضغاث أحلام، لأن ذلك مذكور عندهم فى جفر جدهم الإمام. وبعد ذلك ذهبوا إليه وسألوه عن الإشارات التى تحدد لهم حقيقة شخصيته وكونه صاحب النبوءة وبعد أن تحققوا منه أوقع الله حبه فى قلوبهم وتمكنت منه، ورحبوا به أسن ترحيب وطالبوه أن يعاهدهم، وعندما سألهم عن السبب ذكروا له : أن اسمه عندهم مذكور وصورته فى الكتاب مسطورة وأنه دلت عليه الجفور، أنه صاحب الفتوح المنصور وقد رأوا لذلك علامات» (السيرة جـ ١ ٩٥ - ٩٦).

وهكذا قد لعبت النبوءة دوراً هاماً فى حياة البطل، فهى مدخله إلى عالم الخير والحق. فبها تحدد اتجاه مستقبله ليدخل الكون من باب القداسة، وقد عرف الطريق الذى وجب عليه أن يسلكه.

ونبوءة الميلاد لا تتوقف عند النبوءة بالبطل مركز السيرة وإنما قد تتعداه لتشمل شخصيات أخرى من شخصيات السيرة لرجال ارتبطوا به ارتباطاً كبيراً فى مسيرة حياته منهم البطل المصاحب والبطل المعادى وعدو البطل.

الهوامش

(١) تحكى الأساطير اليونانية « أن الأقدار، حين حضرت زفاف أبويه، تنبأت لهما بأن ابنهما الذى سيرزقان به يحارب مملكة طروادة فيتساقط أبناؤها تحت ضربات سلاحه الفاتك البتار، كما تتساقط سنابل الحنطة تحت ضربات منجل الحصاد !.. وأن حصون المدينة سوف تتداعى أخيرا أمام هجماته فيدخلها دخول الفاتحين، لكنه سيفقد حياته آخر الأمر عند أسوارها !.

ورسخت هذه النبوءة المفجعة فى ذهن الحورية العروس «ثيتيس»، فلما رزقت بابنها «أخيل» جعلت همها الأوحد أن تحميه بكل وسيلة من عدوان الأقدار وتكفل له الخلود على قيد الحياة.. فلما شب عن الطوق حملته إلى نهر «ستيكس» المقدس، الذى يكسب ماؤه كل جسم يبلله مناعة أبدية ضد الموت !.. وهناك أمسكت بالصبى من عقب - كعب - قدمه وألقت به تحت الماء.. فاكتسب جسمه تلك المناعة ضد جميع قوى الفناء ولم يبق للموت منفذ إليه إلا عن طريق عقب قدمه الذى لم يبلله ماء النهر !. (مقدمة الإلياذة، ص ٣٢).

(٢) تلقى يعقوب عليه السلام النبوءة الخاصة بيوسف فى طفولته من حلم رآه يوسف فكانت يقينا له بأنه سيلتقى بابنه عند غيبته كما كانت يقيناً ليوسف بأن الله حافظه حتى يرى أبويه وهو فى مكان علىٍّ.

وقال الله تعالى : ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴿٤﴾ قَالَ يَا بُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُؤْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٥﴾ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَىٰ آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَىٰ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٦﴾ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِ آيَاتٌ لِّلسَّائِلِينَ﴾ (٤ - ٧ : يوسف ١٢).

(٣) وتلقت أم موسى - عليه السلام - النبوءة الخاصة به من الله ساعة ميلاده: أن الله حافظه وجاعله من المرسلين .

قال الله تعالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ (٧ : القصص ٢٨).

(٤) جمع عبد الرحمن الأبنودى رواية جابر أبو حسين والهلالية ونشر منها ثلاثة أجزاء من مولده حتى مقتل والده على يد حنضل السلطان، إلا أنه أنكر أنها رواية جابر أبو حسين وصدرها بالآتى : «الرواية الشفوية للشعراء الشعبيين» وفى مقدمة النص عدها روايته وذكر : «وأعتمد فى روايتى على روايات عدة لشعراء عديدين لكل منهم موهبته التى تتألق فى أجزاء دون أجزاء»، ولهذا أسقطت هذه النشرة لعدم الثقة فيها، ولجأت إلى روايات جابر أبو حسين الصوتية وأعدت تدوينها ..

المصادر والمراجع

*** أولا : المصادر :**

(أ) النصوص الشفاهية :

- مواليد أبى زيد الهلالى : رواية شفوية لعبد السلام حامد بالأقصر، جمعها د. أحمد شمس الدين الحجاجى فى ١ / ٩ / ١٩٧٨ .
- أبو زيد الهلالى، رواية شفوية للحاج عبد الظاهر بالكرنك فى صعيد مصر جمعها د. أحمد شمس الدين الحجاجى فى ٢ / ٨ / ١٩٧٨ .
- مواليد أبى زيد الهلالى، رواية شفوية لعوض الله عبد الجليل، بالحجز بحرى مركز ادفو، جمعها د. أحمد شمس الدين الحجاجى فى ٢٧ / ٣ / ١٩٧٩ .
- مواليد أبى زيد الهلالى سلامة رواية شفوية لجابر أبو حسين. آبار الوقت. مركز أخميم .
- من أقاصيص بنى هلال، رواية عن شيخ ليبى من جادو، جمعها عبد الرحمن قيقة، قدم لها ونقلها إلى العربية الفصحى الطاهر قيقة، تونس: الدار التونسية للنشر، ط ٢، ١٩٨٥م.
- قصص أبى زيد الهلالى سلامة، جمعها بترسن من عرب الشوا فى شمال نيجيريا ونشرها فى كتابه :

Patterson, J.R. Stories of Abu Zaid The Hilali In Shuwa Arabs, London, 1930.

***

(ب) النصوص المدونة :

- ألف ليلة وليلة : القاهرة : طبعة مكتبة ومطبعة المشهد الحسينى، (ب.ت) .
- سير بنى هلال : بيروت : دار الكتب الشعبية، (ب.ت) .
- سير الظاهر بيبرس : القاهرة : عبد الحميد أحمد حنفى، (ب.ت) .
- سيرة عنترة بن شداد : القاهرة : مكتبة الجمهورية ، ١٩٦٢م.

- سيرة الملك سيف : القاهرة : مكتبة الجمهورية، (ب.ت).
- قصة الأمير حمزة البهلوان : القاهرة : مكتبة الجمهورية، (ب.ت).
- قصة الأميرة ذات الهمة : القاهرة : مكتبة مصطفى البابى الحلبى، ١٩٦٢.
- قصة الزير سالم ، أبو ليلى المهلهل : بيروت : دار الكتب العلمية، (ب.ت).
- قصة بهرام شاه ملك العجم : القاهرة : عبد الحميد حنفى، (ب.ت).
- قصة فيروز شاه : بيروت : المكتبة العلمية الحديثة، (ب.ت).

*** ثانيا : المراجع :**

- القرآن الكريم.
- الكتاب المقدس.
- إبراهيم عبد الستار. آفاق جديدة فى دراسة الإبداع : الكويت، وكالة المطبوعات ، ١٩٧٩.
- إرمان، أدولف، ديانة مصر القديمة : ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكرى - القاهرة : مصطفى البابى الحلبى، (ب.ت).
- ابن الأثير، عز الدين بن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى، الكامل فى التاريخ : بيروت، دار صادر سنة ١٩٦٥، مصور عن طبعة إ. ج أبريل سنة ١٨٧١.
- الزمخشرى (محمود بن عمر) : الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل : القاهرة : المطبعة البهية ١٣٣٤ هـ.
- ابن سيرين بن محمد . تفسير الأحلام الكبير . القاهرة. محمد على صبيح ، ١٩٨٢.
- أويديبوس ملكا : (فى مجموعة من الأدب التمثيلى اليونانى، ترجمة طه حسين. القاهرة : دار المعارف (ب.ت).
- الطبرى، أبو جعفر بن محمد بن جرير : جامع البيان فى تفسير القرآن. القاهرة: المطبعة الميمنية، ١٣٢١ هـ.

- ابن كثير ، أبو الفداء . الحافظ :

* البداية والنهاية . بيروت : دار المعارف ، ١٩٦٦ .

*تفسير القرآن العظيم . بيروت ، دار ابن كثير (ب.ت) .

- ابن هشام ، أبو محمد عبد الملك : السيرة النبوية ، مكتبة الكليات الأزهرية ، ١٩٧٨ .

- هوميروس ، الإلياذة . ترجمة وتقديم أمين سلامة - القاهرة : دار الفكر العربي ، ط الثانية ١٩٨١ .

Eliade M., The Sacred & Profane. Translated from French by Willard R. Trask. New York-Harcourt, Brace & World Inc. 1957.

ملحق

الباب الأول

من

سيرة بنى هلال

رواية : الحاج عبد الظاهر بغدادى

من قرية الكرنك - مركز الأقصر - محافظة قنا

جمعها :

د. أحمد شمس الدين الحجاجى

---

* رويت بتاريخ ١٩٧٨/٩/٢ ونشرت فى صحيـــفة الفنون الشعبية العدد ٢٩، أكتوبر، نوفمبر، ديسمبر ١٩٨٩.



بسم الله الرحمن الرحيم

سيرة بني هلال ..

كانوا زمان قبائل قبائل .. إيه معنى ! القبائل ، يعني ، كل قبيلة لها سلطان وكل قبيلة لها زعيم .

معنى الزعيم إيه يعني ؟ هو الزعيم . اللي هو شديد يبقى زعيم للقبيله والسلطان سلطان قبيله .

فقوم يوم رزق بن نايل . أخذ خضره الشريفه . خضره الشريفة تبقى (بنت) قرضه الشريف .. نسلها من نسل النبي .. اللي هي خضره .. أخذها رزق بن نايل . لما أخذها رزق بن نايل .. تزوجها .. جابت منه شيحه . لما جابت منه شيحه وقفت حداشر عام يعني حداشر سنه ،

حداشر عام تبقى عندنا ، حداشر سنه .. وقفت ، يعني لا جابت عيل ولا بنت . حداشر عام فهنا العرب بقوا يعايروها .

إزاي مرة الزعيم متخلفش وزعيم بني هلال .. ومتخلفش أولاد .

- لا طلقها .. طلقها

بقوا العرب .. يوزوا في رزق بن نايل .. وهي يعايروها .. فهو مقبلش فيها يعني ، معنى مقبلش فيها مرضيش يقبل كلام .. يجوز .. وبعدين بقوا يعايروها وكل ما تطلع مع حريم الهلايل يعايروها ..- يا عاقرة .. ياهمش عارف إيه ؟ معنى الكلام ده

قام جوا في يوم من ذات الأيام وكان فيه عيد . وطلعت هي وحريم الهلايل يعملوا م العيد .. فراحوا العيد لقيوا طير أبيض وطير أخضر . واللي تمنت لها على طير أبيض واللي تمنت على طير أخضر وهي تبص لم لقيتش لها حاجه اسمها منى وبعدين جه طير أسود عظيس يضرب في الطير ده الأخضر .

كل اللي ينكشه يسيل دماه هي توجهت للكريم وقالت : يارب تسمع لي كلام .

إديني ولد أسود عظيس وكل اللي ينكشه يسيل دماه .. كان ربنا

وِبَابِ القَدَرِ مَفتُوحْ قَبِل دُعَاهَا وَاقعْهَا رِزقِ بْنْ نَايِل حِبلِتْ إِيه..؟
لَمَّا حِبلِتْ .. شَهرْ يُطرُدْ شَهر .. لِغَايةْ مَا وَضعِتْ.
الخَبَر رَاحْ لِرزقِ بن نايل قالواله مَرَاتَكْ وضعت وِجَابِتْ وَلَدْ
إنبَسَطِ انبِسَاطْ شَدِيدْ خَالِصْ ده اللي هُوَّ الزَّعِيمْ رِزقْ بن نايل.
قَامْ كانِتْ عادةِ السَّلاطِينْ يوَدُّوا طِشْتْ مِنْ دَهَبْ يِنزِّلوا بِيهِ
المَوْلُودْ وَسْطِ الدِّيوَانْ عَشَانْ يِشُوفُوا إِيهْ يِبَارْكُوا لُه .. لِرِزْق
ابن نايل. ودُّوا الطشتِ الدَّهب ده يِنَزِّلوا فيه المَوْلُودْ. نَزِّلُوه
وَسْطِ العَرَبْ. لِقيُوهْ عَبْدْ أَسْوَدْ يعني غَطِيس .. عبد
العَرَبْ هَرَجُوا: إزَّايْ دَه عبد؛ دي مَرَاتَكْ مَلتُه في حُوش
الجمَالْ؛ يَعنِي مَعَ العَبِيدْ. عَاوزِينْ يِكتِلُوا الوَادْ.
رزق كَبَسْ على وَلَدُه مَنَعْ مِنُّه الكَتْلْ. رزق بن نايل كَبَسْ على وَلَدُه
مَنَعْ مِنُّه إِيهْ؟ منع منُّه الكَتْلْ يَعْنِي مَحَدِّشْ يِكتِلُه.
أَخَدُوا بَعضُهُم مَشَايِخ العَرَب، عِمْلُوا حُكْمْ عرب جَمِيعِ اللِّي وِلِدْ مَعْ
خضرَه الشريفه. جميع المَالْ جَمِيعْ أيْ حَاجَه وِلِدْ مع خضره الشريفه
إِنسَا مِنْ تِرُوحْ بَلَدْهَا. وِيَاخْدُوهَا عَشَرْ فُرْسَانْ وِيِسَفَّرُوهَا
يوَدُّوهَا لقرضه الشريف حكمتِ العرب إِيهْ يِعمِلْ رزق بن نايل.
حكمت عليه العرب بِقُوَّه .. حكمت عليه .. لَمَّا حكمت عليه العرب
حِلِفْ يَمِينْ لَمْ أَقعُدْ في نَجْعْ هِلَالْ لِدِينْ دَيَّانْ. رزق بن نايل
حلف يمين لم اقعد فيك يا نجع هلال. قام رزق بن نايل أَخَدْ
شِيَمُه اللي هِيَّ بِتُّه الأَوَّلانِيَّه وقَامْ ع الجَبَلِ الأَخْضَرْ
ودولْ أَدُّوهَا اللِّي هِيَّ المَالْ وِادُّوهَا عَشَرْ فُرسَان ودوها
لمين؟ لَأَبُوهَا في مدينة حرم النبي المُختَار ..
مَشِتْ إِنْ كَانْ سفر يُوم وَلَّا اتنِين ..
قالت لهم: يا عَرَبْ
قالوا لها: نعم
قالِت لهم: يِكُونْ أَنَا عِمِلتْ مَعَاكُمْ حَاجَه في دُنيَاتِي؟! أَكُونْ
أَذِيتْ حَدْ. يِكُونْ ظَلَمْتْ حَدْ.

قالوا لها: أبداً حاشا لله

قالت: أنا عاوزه منكم معروف .. أنا دلوقت فضيحتي
أروح لابوي أقول له إيه.
اللي عاوزاه منكم: أنا أرجوكم تقولوا للسلطان
وديناها لابوها وأنا لي رزق ع الكريم أنا والعيال
دول. والمال ولي رزق ع الكريم
تكلنا الجبال .. تكلنا الحيشان ..
دندنوا الفرسان اللي هم العشرة وقالوا:
إحنا نرجع للسلطان .. نقول له وصلناها .. ودي
عملت فينا معروف واللّه انتين ورجعوا.

قالوا للسلطان: إحنا وصلناها على خيرة الله.
هي مشت. خضره واللي معاها أتت على بلد إسمها الزحالين.
وسلطانها أبو الفضل الزحلان. أتوا عليه لما أتوا على أبو الفضل
ردوا عليه السلام. قالوا له: إحنا ناس يعني نزلاء
وعاوزين نربي المال هنا ونعيش هنا. قال لهم:
إن ما شا الله تحت الأرض تشيلكم الراس. رحب بهم
واداهم منازل واداهم كل حاجة. وعمل لهم مدرسه لاولادهم
وكل حاجه تمام التمام.
[illegible]دوا عند فضل الزحالين. خضره والجاريه سعيده والأولاد
والبهايم اللي ولدت معاها كله معاها. قعدوا. كان أبو زيد
عيل في بطن أمه .. مثلاً دلوقت على باط أمه .. مين
تربى فين؟ في الزحالين لما تربى في الزحالين .. كان لما راح
الكتاب زمان كان يقولوا كتاب دلوقتي مدارس.
لما راح الكتاب كان رجل منتبه نباهه جامده. يعني زي
ما تقول .. يقول له السوره يقراها على طول. التانية وراها
على طول نصح .. مين؟ أبو زيد. قمصان كان والد معاه
قمصان العبد والذيعاه أخدته خضره معاها أخد بعضها ها .. ها

بقى تمام كل ماله ناصح . قعد سبع سنين عند فضل الزحالين
يوم من ذات الأيام كان جاي الحاكم على جميع القبائل . واحد إسمه
جابل ليه قبيله تاني بياخد منها الصرّه . وعشر المال غصبت عنها
علشان حاكم عليها . فجه مرسال جابل العبد وطلب الصرّه
وعشر المال من فضل الزحالين على حسب الجواب اللي جاي من مين ؟
من جابل . نقصت من فضل الزحالين عشرين جمل . قال لها ياخضره .
قالت له : نعم .
قال لها ، والله جابل طالب منينا الصرّه وعشر المال .
وناقصه منى عشرين جمل تديهم لي ولما يتوفر المال أديهم لك
قالت له : إحنا كله مالك .
أدت إيه ؟ العشرين جمل .. وأدى العبد الصرّه .
هناك وجانا أبوزيد قال يا اما أمال فين جمالنا ؟
قالت له : ياولدي .. القوى بياخد الصرّه
وعشر المال دى علشان إيه ؟ يعني الصرّه .
وعشر المال دي علشان إيه ؟ قالت له ياولدي القوي بياخد الصرّه
وعشر المال من القبائل اللي حاكم عليهم . قال الواد ركب
حلق على العبد كتله ورجّع المال . اللي هو مين ؟ أبوزيد ..
كتل العبد بتاع جابل ورجّع المال . لما رجّع المال فاضل زعل .
فضل الزحالين من قوة جابل . ليه ياولدي . قال له مفيش
صرّه ولا عشر المال ولا حاجه .. إنت يابايه متخافش دلوكت
عامله أبوه . قال له : متخافش م الحاجات دي .
وذ يومين مايعيش تلاته .. أنا أقابل جابل وغير جابل .
الخبر راح لجابل دي فيه عبد حصل في الزحالين .
مايلنش م الكبون . وكتل العبد رجّع المال . جابل متغاظ .
عنده الغلطه كبيره في العبد الزحالين ده يكتل العبد بتاعي .
شدعمك مين ؟ جابل وجيشه . كان أبوزيد أخد حصان من بتاع
أبو الفضل الزحالين وربط عند الطريق لا يعلم فضل ولا يعلم المدينه

قال له خبر إيه يا خال؟ رايح فين؟ بيقول لمين؟ لجايل ..
قال له: رايح بيقولوا عبيد ظهر في الرحالين كتل العبد بتاعي
ورجّع المال. ده أنا حالف.
قال له: أنا العبيد .. أنا العبيد .. إنت يا ولد يا اللي
ما بيلبس م الكربوس تقف قبالي. قال له: والله عاد يا عمي
أنا أوقف قبالك عشان إنت متعدّي.
جايل مش معتبر كلام أبوزيد أبداً
مش معتبر كلامه عامله ولا حتى حاجه.
قال له: ما لكش حاجه عندي. ليك أنا وإنت في حومة الميدان
إن كتلتني أهو أنا قدامك وإن حيت يبقى أنا وراك والزمن
طويل. ده أبوزيد بيرد عليه .. استعظم جايل .. زي متعظم.
مش عاوز يرد عليه الرد أن ده .. يا واد إنت ما بيلبس م الكربوس
حساره الكتل. قال له: والله إن كان صفيت الملتقى قدامك
قال له ..
أهو طبق السوق والخيل على بعض نسوق يعني معناه الخيل اتحشرت
على بعض. طبعاً جايل متعظم وده يعني عامل حساب لجايل. وجايل
ما عملش حساب ليه ولا حاجه عنده. قام لما اتحشرت الخيل: راح
جايل ضارب أبوزيد. مرّوا في الخـوا .. فوّ ..
كان سيد أبوزيد محزّمه من القدره الإلهيه. يلقاه سيدنا الخضر
وحطه ع الكربوس كأنه ما جاش. لف العقبه وجاه.
قال له: أنا ما كتلتك. قال له: ربنا نشاني ..
أنا يا واد ما كتلتك ...
قال له: ربنا نشاني .. إنت ربنا يا عمي
قام أخدوا من الصبح لبعد العصر. بالميدان كان العرب زمان
لما يا جوا يقولوا يعني ناخد راحه الصبح. قال له: خلاص الحرب
وبكره آتي .. روّح أبوزيد مغلوب غلب شرعي:
قعد يهرّخ. أمه عشان إيه فيه يا أبوزيد؟ إيه فيه؟

مانيش ... بقى طول الليل ماينام ويصلي يتركع .. ويصلي يتركع .. ويصلي .. لما بقى يتركع ويصلي لما عمود الفجر جان . يعني لما الفجر شقشق . قام جاته سنهية من النوم وجاله الخضر عليه السلام . قال له : إصحى يا ابوزيد ده مكتوب لك بالسبع تيام ولا تخافش . بكره تخش على جابل .. وتكتل جابل .. بس أول مايوقع في الأرض يلحق المنطقه بتاعت جابل .. إن ملحقتش المنطقه دي . المنطقه دية صاحبة الأعوان . حاكمة على جميع أعوان الكون . وأول مايوقع تروح متشلدي المنطقه وتحطها في صلبك يبقى إرتاحت لك جميع الأيام .

أبوزيد أخد الكلام ده باعتباذ وسرح الصبح . كان هنا أبوزيد يعشق أمه وأول ما أمه تصبح عليه . يقول لها . إدعي لي دعاكي من الرحمن . أخد بعضه وسرح . وجاه جابل .

قابلوها وطبق السوق . والخيل على بعض تسوق .. والكلمه الحلوه فاتوها وبقيوا فيه دق النقصان . خلف خلفه رديه .

أبوزيد ضرب بدبوس .. وقع .. راح متشلدي المنطقه وحطها في الصلب وقرط عليها زراز .

وانشغل .. الدبش طفش . اللي طار من هنا واللي طار من هنا .. راح الخبر لمين ؟ جابل مش معاه ولد .. راح الخبر لمرة جابل .. مرة جابل مش متأملة حد يكتله . قالت : مين يخلص لي التار غير ناس يسموا الهلايل . اللي هما أبو أبو زيد وعم أبوزيد وناس الهلايل ده محدش يجيب لي تاري أنا إلا دول .. مقدرش أروح إلا لدول . يجيب لي تار جوزي ..

أخدت بعضها وراحت للسلطان بتاع الهلايل .. والسلطان بتاع الهلايل قابلها مقابله كويسه وشكت له باللي حصل واللي جرى .

كان المده دي هما عندهم طبل سفيان للهلايل بس اسمه طبل سفيان .. طبل سفيان ده يسمع .. يعني لما يضرب طبل سفيان

نتجمع الناس كلها .. تيجي تشوف السلطان .. الله .. حوا السلطان ، نعم
قال : والله جاتنا وليه مرات جايل جات تلتجي فينا ..
الرحالين .. فيه عبد حصل من الرحالين كل جايل ، وجايه تلتجي فينا .
وعاوزين نقوم ع الرحالين .. أخرك .. قاموا ع الرحالين بالذين
ودينهم والسته وكله .. كل الناس قامت إيه ؟ على الرحالين ..
لما قاموا على الرحالين .. أتو على الرحالين .. نصبوا الخيام ..
وطلع المنادي ينادي يقول الحرب جات صحابها .. كان العرب لما
يروحوا من بلد لبلد يطلعوا منادي يقول الحرب جات لصحابه ..
يعني الحرب جات صحابه .. إطلعوا .. لما نادى المنادي وقال
الحرب جات صحابه .. راح لأمه أبوزيد . قال لها يا أمنا
قالت له : نعم . قال لها : بيقولوا فيه ناس بيسموا الهلايل ..
وجايين مطلعين المنادي يقول الحرب جات لصحابه يا خدوا التار
جايل .. قالت : الهلايل وصلوا ..
قال لها : ناس يسموا الهلايل .
طيب شوف مين نازل الحرب ... دي .. مين ؟ خضره بتقول لابنها
.. مين اللي نازل الحرب .. يعني / راح يسمع المنادي يقول الحرب
نازله فلان الفلاني مثلاً ويرجع تقول له : ده إذا لحقته
أوعى تكتله .. بس خد طرف شاشه .. دي خضره
بتوصى ابنها .. يقوم بسعدة الله يحارب معاه يروح بالسيف
جايب لها طرف شاشه يطلع المنادي في العصر .. مين ؟
فلان اللي لحقته ده اكتله .. يلحق يحارب معاه يكتله .. كتل في الهلايل
فوق من خمستاشر ستاشر راجل زعيم ..
وليه بتقول له إن لحقته تكتله دول اللي كان يحرش عليها رزق
ابن نايل وهو السبب عاوز يكتل أبوزيد .. تقول له : ده اكتله ..
والراجل مثلاً اللي ما يتكلمش تقول له : ده أوعى تضرب عليه ..
جيب لي طرف شاشه .. دي مين ؟ دي خضره .. عشان عارفاهم
.. مش راضيه تقول لابوزيد دول ناسك .. لا .. لما تتفرج .

عليهم .. قوم تبدع الهلايل بدّيع جامد ..
لمّا بلغهم حكم عليهم لا نار يضوي ولا جمل يقعقع .. ولا كلب يعوي ..
حكم رسمي .. قالوا إحنا غلبنا من العبيد ده بتاع الزحالين ..
إحنا نبعت لرزق بن نايل في الجبل الأخضر .. يلحقنا معدش
يا بوي كده الحرب دي غير رزق بن نايل .. إللي هو مين ؟
أبوزيد .. الكلام ده ميعرفش أبوزيد إن له أبو ..
ميعرفش إن ليه حاجه في الحاجه دي .. لا ..
قام كتب السلطان .. كتب جواب .. لمين ؟ لابن عمه إللي هو رزق
ابن نايل .. ليه كتبوا الجواب .. ؟علشان إيه ؟
إزنقوا .. أزنقوا الهلايل من عبد الزحالين ..
قام أخذ نفسه .. نجاح عند رزق بن نايل أبو مين .. أبو قمصان
إللي عبد أبوزيد .. نجاح ينبقى عبد رزق وقمصان بقى عبد أبوزيد
.. وده لرزق بن نايل .. قام بالجواب يوم ولا اتنين قول
القايل تلت أيام شيحه بنت رزق بن نايل شافت نجاح جاي
من بعيد .راكب الهجين .. جاي يا ليلك يا نهارك قدمت
مين عليه .. ؟ شيحه .. لما تقدمت شيحه عليه خبر إيه يا نجاح.
جيت رايق ؟ بابك أمي ردت ع النجع تاني ؟
قال لها يا ستي والله لا أمك ردت ع النجع تاني .. أنا جاي
لسيدي رزق بن نايل .
قالت له : طيب اتفضل أنا أبويا هو هناك .... كان في المده دي رزق
ابن نايل مهدل ، يعني ، الشعر سايل على كتافه والدقن
والكل .. مزينتش ولا في السبع سنين دي
أول ما أتى نجاح ورد السلام على سيده رفع الشعر .. وعي
إليه .. للعبد .. قال له : خبر إيه يا نجاح .. جايني إيه فيه ؟
بابك خضره ردت ع النجع تاني .. خضره اللي هيه مراته اللي هو
حلف عليها يمين ماتسكن في نجع هلال تاني .. قال له : لا يا سيدي ..
والله لا ردت ع النجع تاني .. فيه عبيد ظهر في الزحالين بدع جميع

الهلايل . ولا دمك وإخوانك .. حكم عليهم لاجل يتقعقع ..
ولا نار تضوى ولا كلب يعوي وقال لي سيدي روح الحق
سيدك .. قال له في الرحالين .. قال له : في الرحالين .. قال
طيب شد .. شدوا .. رزق بن نايل زعيم الهلايل رزق بن نايل أبو
أبوزيد الزعيم بتاع الهلايل أول ما أتى ع العرب ..
لقي زي الكلام مضبوط .. يعني لا فيه نار ولا حاجه ..
ولا محتاجه قابلوه مقابله عظيمه .. جابوا له صلحوا له ونصروه ..
قال خبر إيه كده مفيش نار تضوي ولاجل يقعقع إيه فيه ؟
قالوا له : والله يا سيدي محكومين .. قال طيب : طلع منادي
وقول الحرب جات صحابها . طلع المنادي ينادي في القبايل وينادي ..
سمع أبوزيد .. إنه فيه واحد اسمه رزق بن نايل زعيم الهلايل
طالب الحرب . هو كان أبوزيد في المده دي .. كله يمشي بشور أمه ..
لازم يمشي ميقولش ليها رايح أي مطرح إلا إذا كان يستأذن
من أمه في الوقت الحالي فلما رزق لما طلع المنادي ده ينادي ..
راح لامه أبوزيد وقال لها يا أمه ، قالت له : نعم .
قال لها : بيقولوا فيه واحد .. رزق بن نايل زعيم الهلايل
وطالب الحرب .. إيه رأيك فيه
قالت له : أوعى يا ولدي ده .. أدي لك ليل مع نهار
أوعى تكتله ولا تجرحه .. أوعى تعرض عليه .. والله
معاك ..
نزل مع رزق بن نايل الصبح .. اشتغلوا في الحرب مع بعض
من الصبح للعصر .. ويحارب مع أبوه لا يعرفه ابنه ولا يعرف
ده أبوه .. ولبنه فاصده خضره كده ليه ؟ فاصده .
علشان بيهون الهلايل عدشان هانوها .. دي أم أبوزيد ..
هناك كده بعد العصر أخذ منه شيحه يسيره ..
أخذ منه شيحه يسيره .. شيحه اللي هي بنت رزق بن نايل
وأخت أبوزيد . خدها يسيره . كان العرب لما يطلعوا يحاربوا

تطلع الحريم تغني وراهم عشان تسجّع العرب .
أخد منه شيحه . لما أخد شيحه نبّه ع الرحالين محدّش يحُش
ع البسيره أبدًا .. إلا سعيده الجازيه تودّي لها الأكل والشرب ..
سامعين وأمره كان ماشي ونبّه على أمه ! خلّوها في أوضه
يودّو لها الأكل والشرب لكن محدّش يخش عليها من الرحالين
ولا غير الرحالين ولا ضيف راجل أبدًا .. إلا سعيده
لما جوا ودّوها في الأوضه .. شيحه بقيت تعدّد على همّ الزمان
لما بقيت تعدّد وتجيب قصدان على خضره الشريفه ويا أمه
إنتِ فين ؟ بس دلوقتي هيّه متعرفش أمها فين ؟ شيحه
متعرفش أمها مين ؟
ولا عارفاها في أيّ وادي .. بقيت تعدّد على همّ الزمان ..
وجابت خضره الشريفه وحالات عديد النسوان دي ..
سعيده قالت لخضره دي البسيره بتعدّد عديد يقطع المصران
وجايبه تملّي خضره .. وتقول أمي فين ومش فين ؟
راحت خضره ضبطت خشم الباب تبص البت تعدّد .. إلا أم
غصت ع البت اللي بتعدّد زي اللي خدتها الشفقه على دي
اللي بتعدّد عديد يقطع المصران دبّت ع الباب قالت لها :
مين ؟ قالت لها : ده أنا أمّك قالت لها امشي يا (كلب ...)
.. البت بتقول لأمها امشي يا (كلب) .. أنا أمي
متحصّلي .. إنتِ تقولي لي الرحالين .. أنا أمي آخر زمن
الرحلان يشقروا على الشريفه .. بقت تشتم في مين ؟
في أمها .. وتغنّي وتجيب قصدان وتعدّد على حالها .. دبّت تاني
.. مين إنت ؟
قالت لها : أنا أمّك .. شتمتها تلات مرات وشيحه تشتم
خضره ، اللي هي أمها .. بعدين لما غلبت عشان تفتح لها
جابت لها أمارة .. فتحت لما فتحت .. ربطوا بعضهم لا تنين ..
وقعوا ع الأراضي .. اللي هي شيحه ويا أمها . خضره جابت

سعيده .. الجاريه بتاعت خضره، وأم قمصان العبد قالت لها : وقسماً برب أمين الأمين يا أمين
ماتقولي يا إلى دول هلايل كنعرفي شغلك متقوليش هلايل أبداً لما ولدي يشبع منهم ..
خضره خافت على رزق يا إلى دي أخدوها منه بسيره .. يطرشق ويموت .. جميع العرب .. يعني العرب لما ياخدوا منه بيته بسيره يمكن يطرشق . ندهت على أبوزيد قال لها : نعم . التي بحالك يسير تعبان .. قالت له يا ولدي .. اليسيره اللي جلبتها دي طمعاً عاوز تبيتن مرحلتك إنوديّ النسيره لغاية البكان يعني نوديها لغاية البكان يعني نوديها من هنا لغاية البكان يعني تروح لأبوها قال لها حاضر .. شد لها إيه ؟ على هجينها .. لا كانت رأت صنف واحد من الرحالين ولا أرت مخلوق إنسان غير الأسود العطيس اللي هو أبوزيد شد لها ووداها لغاية هناك .. لغاية الخيام بتاعتهم .. وقال لها اتفضلي ..
لما نزلت ورزق شاف بيته قال : ياسلام ده مش عبد ولا يعرف العبد ده أصيل من أصل زين .. إزاي يسيره .. وإزاي يجيبها لي لغاية البكان ده أشجع مني وأشجع من كل الفرسان بقى بيتأمل رزق بن نايل طول الليل .. لما بقى بيتأمل رأي ماتقول .. يعني من الشجاعه بتاعتهم مدة الشجعان إزاي ده يجيبها لي ؟
المهم ياشيخ العرب ! طلع الصبح للحرب ووراه شيحه تغني وتجيب قصدان .. هنا شيحه مسكت تلات تفاحات . دلوك عاوزه شيحه توري أبوه وتوريه ده مين ؟ إبنه .. مسكت تلات تفاحات .. راحت رامية أول تفاحه لأبوزيد إتلقاها بطرف السيف .. يعني شوف .. راميها إزاي وإتلاقاها إزاي بطرف السيف .. فرص على مين ؟

على أبوه مبعرفش أبوه .. قرص في الحرب يعني زود فـوم
راحت رامية التانية لقفها بالركاب يعني بركاب رجله ..
رمت التالته لقفها بسده فهمت يا إي عاوزه تفهم أبوها
ابنه .. وعاوزه تفهم ده إنه ولده .. لما رمت التلاته
دول وخافت على أبوها قالت له : حوش يدك حوش
وحقق م المكينة يعني حوش يدك حوش وحقق م المكينه
حقق يعني هدن ..
دابت كلام بالواد ولد بوزيد لتنين وقعوا ع الأرض ..
غشيوا تلات ساعات صحيوا بخبر تلات ساعات وانعرفوا
بتسبحه أخته وده إبنه . وده مين ؟ رزق بن نايل . ندهوا ع الرحالين
وعرفوا العرب اللي هم بني هلال وإنه ده إبنهم أبوزيد ..
وانعرفوا على بعض قام الرحلان عمل عزومة . العزومة دي عملها
لجميع العرب وخلوا مين يموق ع العزومه أبوزيد . موق على
جميع العرب وابوه مارضيش يدبه دايب لما مرضيش
يدبه دايب .. أبوه جمعوا العرب التابعين لرزق بن نايل ..
إزاي يعني زعيمنا ميدهوش ويدينا إحنا كلنا .
قال لهم ، متزعلوش يا عرب هو ما تني في القماط وأنا فتّه في
السماط .. يعني معنى إيه فاتني في القماط أنا وصغير وأنا فته
في السماط . وكذ بعضنا .. إتعركوا العرب مع بعضهم وعملت فضل الرحالين
عزمهم تلات تيام العرب عزمهم فضل الرحالين .. أخدوا التلاتين
يوم وطلبوا إيه ؟ السفر ..
قسموا دبلوك النصيب أربع تربع إيه معنى الأربع تربع
يعني المكاسب اللي تيجي من الدول قسمها على أربع كمان الأمير
دياب كوم .. وزيد أن كوم والقاضي كوم وأبوزيد كوم .
فقال ربعي لابوي فضل الرحلان .. ده ربعي أنا
طول ما أنا حي .. لأنه ده ربّاني مارتنيش إنتو ..
ده ربعي / أنا طول ما أنا حي لابوي فضل الرحالين .. يجي الربع لفضل ..

وقسموا التلات زيع زي عمايل الشيخ .. وبقى الربع للرحالين عزموهم الرحالين .. سفر يومين .. ما كانوا القبايل دي بعيده عن بعضيها .. مش بخوا زمنها .. كل قبيله لحالها .. عزموهم ورجعوا على فين ؟

على نجع هلال .. بقى مين الزعيم ؟ أبو زيد حياة أبو زيد دلوك حيبتدي من الساعه دي بقى الزعيم أبو زيد . اللي هو الزعيم وحسن السلطان يعني حسن أبو علي بن سرحان الدريدي في جيل أبو زيد حسن .. وجيل حسن بقى سلطان بدل عن أبوه .. وده زعيم عن أبوه بقيت الزعامه لمين لابو زيد .. الزعامه دي لابو زيد

أي دوله تلتجي أو أي نجع أو أي يسيره أو أي حاجه من العرب تلتجي لمين ؟ لابو زيد .. يقوم ياخد مصلحته تاعتهم .

كان أبو زيد لما اخد منطقة جابل كان حلف يمين : ما أفسد ولا آكل حرام ولا أفوت غلبان طول ما أنا حي .. في نشأته لما لحق منطقة جابل قال الكلام ده .. اللي هو مشي بيه أبو زيد على طول حياته .

فراح أبو زيد نجع هلال الزعامه لمين ؟

لابو زيد . الزعامه دلوك لابو زيد .

المؤلـف

* أحمد شمس الدين مصطفى الحجاجي
* دكتوراه في النقد والأدب الحديث من كلية الآداب - جامعة القاهرة عام ١٩٧٣م .
* أستاذ الأدب العربي والنقد الحديث - قسم اللغة العربية - كلية الآداب - جامعة القاهرة .
* عمل أستاذاً زائراً ومحاضراً في العديد من الجامعات العربية والعالمية منذ عام ١٩٧٠ حتى عام ١٩٩٨ .
* من أعماله :

١- المسرحية الشعرية في الأدب العربي - القاهرة : دار الهلال، ١٩٩٥ .
٢- النبوءة بالبطل في السيرة الشعبية - القاهرة : هيئة قصور الثقافة، ١٩٩٤
٣- مولد البطل في السيرة الشعبية - القاهرة : دار الهلال، ١٩٩١ .
٤- صانع الأسطورة.. الطيب صالح - القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، ١٩٩٠ .
٥- الأسطورة في الأدب العربي - القاهرة : دار الهلال، ١٩٨٣ .
٦- The Origins of Arabic Theater, Cairo, General Egyptian Book Organization 1981.
٧- العرب وفن المسرح - القاهرة : الهيئة العامة للكتاب، ١٩٧٥ .
٨- الأسطورة في المسرح المصري المعاصر، (جزءان) القاهرة : دار الثقافة الجديدة ١٩٧٥- الطبعة الثانية، القاهرة : دار المعارف، ١٩٨٥ .
٩- القصص القرآني : بدأ نشرها في مجلة الهداية - العدد ١٠٠ مارس حتى العدد ١٠٦، سنة ١٩٨٦ .
١٠- المطارد في الرواية العربية (تحت الطبع)
١١- الأسطورة في الرواية (تحت الطبع) .

* الأعمال الإبداعية :

١٢- سيرة الشيخ نور الدين (رواية) نشرت في مجلة القاهرة من العدد ٣٧ في ٤ مارس سنة ١٩٨٦ حتى العدد ٥٨، وطبعت طبعة ثانية في كتاب القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٦م.
١٣- الخماسين (مسرحية) القاهرة : الهيئة العامة للكتاب ١٩٨٧ .

قائمة إصدارات

مكتبة الدراسات الشعبية

(صدر العدد الأول فى يناير من عام ١٩٩٦)

١ - قصصنا الشعبى .... د. فؤاد حسنين على
٢ - يا ليل يا عين .... يحيى حقى
٣ - سيد درويش .... محمد دواره
٤ - المجذوب.................................. فاروق خورشيد
٥ - فن الحزن .... كرم الأبنودى
٦ - المقومات الجمالية فى التعبير الشعبى.......... د. نبيلة إبراهيم
٧ - إبداعية الأداء فى السيرة الشعبية جـ ١ .... د. محمد حافظ دياب
٨ - إبداعية الأداء فى السيرة الشعبية جـ ٢ ... د. محمد حافظ دياب
٩ - أدبيات الفولكلور فى مولد السيد البدوى .... إبراهيم حلمى
١٠ - موال أدهم الشرقاوى .... د. يسرى العزب
١١ - الرقص الشعبى فى مصر .... سعد الخادم
١٢ - المغازى .... د. صلاح فضل
١٣ - بين التاريخ والفولكلور .... د. قاسم عبده قاسم
١٤ - مملكة الأقطاب والدراويش .... عرفه عبده على
١٥ - فلسفة المثل الشعبى .... محمد ابراهيم أبو سنة
١٦ - الظاهر بيبرس ....د. عبد الحميد يونس
١٧ - الحكاية الشعبية .... د. عبد الحميد يونس
١٨ - خيال الظل .... د. عبد الحميد يونس

١٩ - الأزياء الشعبية والفنون فى النوبة .... سعد الخادم
٢٠ - الفن الإلهى .... محمد فهمى عبد اللطيف
٢١ - النيل فى الأدب الشعبى .... د. نعمات أحمد فؤاد
٢٢ - الفولكلور فى العهد القديم جـ١ .... تأليف : جيمس فريزر
ترجمة : د. نبيلة ابراهيم
٢٣ - الفولكلور فى العهد القديم جـ٢ .... تأليف : جيمس فريزر
ترجمة : د. نبيلة ابراهيم
٢٤ - الفولكلور فى العهد القديم جـ٣ .... تأليف : جيمس فريزر
ترجمة : د. نبيلة ابراهيم
٢٥ - حكاية اليهود .... تأليف : زكريا الحجاوى
٢٦ - عجائب الهند .... تقديم يوسف الشارونى
٢٧ - حكاية اليهود ط ٢ .... زكريا الحجاوى
٢٨ - الحُلى .... د. عبد الرحمن زكى
٢٩ - أبو زيد الهلالى .... محمد فهمى عبد اللطيف
٣٠ - السيد البدوى ودولة الدراويش.... محمد فهمى عبد اللطيف
٣١ - التاريخ والسير .... د. حسين فوزى النجار
٣٢ - خيال الظل .... د. ابراهيم حمادة
٣٣ - فرق الرقص الشعبى فى مصر .... عبير السيد
٣٤ - مباحث فى الفولكلور .... محمد لطفى جمعة
٣٥ - نجيب الريحانى .... عثمان العنتبلى
٣٦ - عالم الحكايات الشعبية .... فوزى العنتيل
٣٧ - الزخارف الشعبية على مقابر الهو .... محمود السطوحى
٣٨ - الفولكلور ما هو ؟ .... فوزى العنتيل
٣٩ - سيرة الملك سيف بن ذى يزن .... المجلد الأول
٤٠ - سيرة الملك سيف بن ذى يزن .... المجلد الثانى
٤١ - سيرة الملك سيف بن ذى يزن .... المجلد الثالث

شركة الأمل للطباعة والنشر
(موافيتلى سابقاً)